البلاغة المقارنة

آلية مواجهة الغزو الثقافي والحفاظ على الهوية

إعـداد

دكتور/ شحاتة عبد الرازق أبوشوشة

أستاذ البلاغة المساعد

في كلية الدراسات الإسلامية والعربية بالإسكندرية

جامعة الأزهر- مصر

١٤٤٦ هـ- ٢٠٢٥م

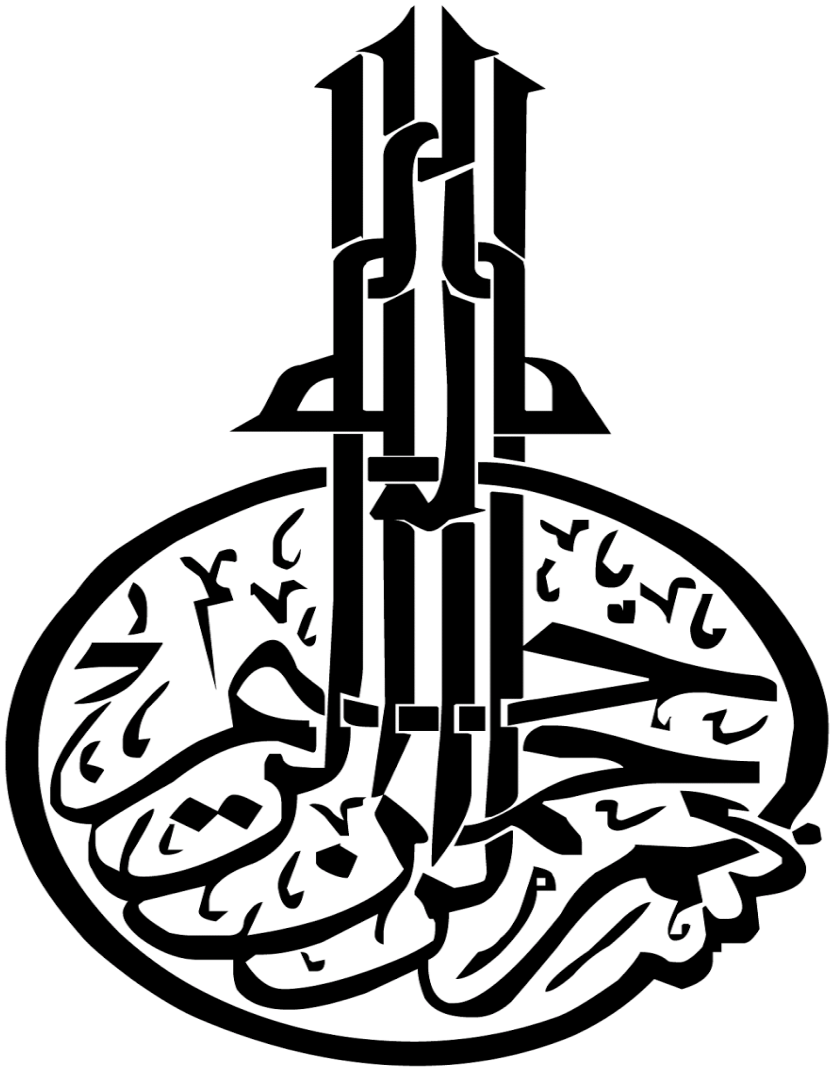

البلاغة المقارنة آلية مواجهة الغزو الثقافي والحفاظ على الهوية

شحاتة عبد الرازق أبوشوشة.
قسم البلاغة والنقد، كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات بالإسكندرية، جامعة الأزهر
البريد الإلكتروني:
Shehata.Abdelrazek@azhar.edu.eg

الملخص:

في هذه الدراسة أتناول موضوع البلاغة المقارنة بالتأصيل والنقد، مقررا أنها تختص بدراسة النظرية البلاغية العربية أو باب من أبوابها أو أحد مناهجها ومقارنتها بالنظريات الغربية القديمة أو الحديثة، أو المقارنة بين نص عربي وآخر أجنبي يتفق معه في الموضوع العام، وأن تتسم هذه المقارنات بالمعايير العامة التي ستبذل الدراسة جهدها في تحبيرها، بغرض تحديد أوجه الاتفاق أو الاختلاف بينهما، وما يمكن أن يفاد منه في الارتقاء بالدرس البلاغي المعاصر، وما يرفض رفضا قاطعا لما بينه وبين تراثنا من تعارض وتناطح. مشيرا إلىٰ ما تعرضت له ثقافة الأمة بصفة عامة والثقافة البلاغية العربية الإسلامية بصفة خاصة من اللمز والغمز، ثم الجور والظلم باتهامها تارة بالقصور، وتارة بالجمود، حتىٰ وصل الأمر إلىٰ اتهامها بالموت، ولا يبقىٰ واجب تجاهها إلا أن نصلي عليها أربعا، ثم نحملها إلىٰ مقبرتها التي لا رجوع لها منها ولا خروج، واستبدالها بنظريات أخرىٰ نابعة من بيئة غير بيئتنا، وبلاغات منشأها ثقافة غير ثقافتنا، ولم أر قوما يملكون ذهبا فيبيعونه بطين ممزوج بماء آسن. وكانت النتيجة أن تكدست دراسات بذلت فيها جهود، ودفعت فيها أموال، ولم تقدم إلا دراسات هجينة، وبحوثا مقطوعة وممنوعة، زادت العقل العربي والإسلامي ضعفا وهونا، ولو صرفت هذه الأوقات وتلك الأموال في دراسات تراثية تكشف ما خفي في الدراسات الأولىٰ المنشئة لعلوم البلاغة، وتفصيل مجملها، والبحث عن خبيئاتها، لقدمت للأمة خيرا، ولملئت صحائفهم أجرا. وقد بدأت دراستي بتناول مفهوم الغزو

الفكري والثقافي وأسلحته ومناهجه ومؤسساته وذلك لصلته الشديدة بموضوع الدراسة ولكونه تمهيدا لا غنىٰ عنه في سياق البحث، ومن ثم بنيت دراستي علىٰ مقدمة ومبحثين: المبحث الأول: البلاغة والغزو الفكري والثقافي. المبحث الثاني: البلاغة المقارنة: النظرية والتطبيق. ثم خاتمة بأهم ثمرات هذه الدراسة ونتائجها، وقائمة بالمصادر والمراجع.

الكلمات المفتاحية: البلاغة المقارنة، رؤية، تأصيلية، ونقدية.

Comparative RhetoricCountering Cultural Invasion and Preserving Identity

Shehata Abdel Razek Abu Shusha
Department of Rhetoric and Criticism, Faculty of Islamic and Arabic Studies for Girls, Alexandria, Al-Azhar University
Email: Shehata.Abdelrazek@azhar.edu.eg

Abstract:

In this study, I address the subject of comparative rhetoric with foundations and criticism, stating that it is concerned with studying the Arabic rhetorical theory or one of its chapters or one of its methods and comparing it with ancient or modern Western theories, or comparing an Arabic text with a foreign text that agrees with it on the general subject, and that these comparisons are characterized by the general standards that the study will exert its effort to write, with the aim of determining the aspects of agreement or difference between them, and what can be benefited from in advancing the contemporary rhetorical study, and what is categorically rejected due to the conflict and clash between it and our heritage. Pointing out what the culture of the nation in general and the Arab Islamic rhetorical culture in particular were exposed to, to insinuation and innuendo, then injustice and oppression by accusing it sometimes of deficiency, and sometimes of stagnation, until the matter reached accusing it of death, and there remains no duty towards it except to pray over it four times, then carry it to its grave from which there is no return or exit, and replace it with other theories stemming from an environment other than ours, and rhetoric originating in a culture other than ours, and I have not seen a people who possess gold and replace it with clay mixed with stagnant water. The result was that studies piled up in which efforts were made, and money was paid for, and they only presented hybrid studies, and cut-off and forbidden research, which increased the weakness and humiliation of the Arab and Islamic mind, and if these times and those funds were spent on heritage studies that reveal what was hidden in the first studies that established the sciences of

rhetoric, and detailing its entirety, and searching for its secrets, it would have provided good to the nation, and their pages would be filled with reward. My study began with addressing the concept of intellectual and cultural invasion, its weapons, methods, and institutions, due to its close connection to the subject of the study and because it is an indispensable introduction in the context of the research. Then, I built my study on an introduction and Two topics: Section One: Rhetoric and Intellectual and Cultural Invasion. Section Two: Comparative Rhetoric: Theory and Application. Then a conclusion with the most important fruits and results of this study, and a list of sources and references.

Keywords: Comparative rhetoric - vision - originality - and criticism

المقدمة:

الحمد لله الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم، والصلاة والسلام علىٰ من أرسله ربه رحمة للعالمين، وبعد:

فعلم البلاغة العربية الإسلامية من أشرف علوم القرآن وأعلاها، ذلك العلم الذي يزدان به لسان العرب والإسلام، لم ينشأ في بيئة غربية ولا شرقية، وإنما تكون في رحم التوحيد، وفي ظلال البيان القرآني الكريم، والبيان النبوي العالي، فكان الوحي الأجل الأعظم المدرسة العليا التي انتمىٰ إليها البلاغيون، يتدبرون فصاحته، ويتأملون أساليبه وخصائصه، فاستخرجوا تلك الكنوز التي ارتقت وتطورت حتىٰ وصلت إلينا سامقة باسقة مثمرة.

لقد حدثت بنزول الوحي المبارك رجة كبيرة في المجتمع العربي الذي لم يكن له نصيب من علوم الدنيا وثقافتها إلا فصاحة بلغت أوجها، وبلاغة سمت سماؤها، ونالت مكانتها التي لن تتكرر في المجتمع العربي والإسلامي بهذه القدرة مرة أخرىٰ، وهي حكمة قدرية ليدرك هذا الجيل جلال آيات الله وقدرها وقدرتها الإعجازية الخارقة لقدرات البشر، ووصل الأمر أن تحداهم ليأتوا بمثله أو عشر آيات أو سورة منه، وإن أقصر سورة لا تتجاوز سطرا في المصحف الشريف، ومع ذلك ومع ما يملكون من فصاحة وبلاغة وشاعرية خصبة تعد في مجملها إعجازا للعصور التالية، انبهروا واندهشوا وعجزوا، وأدركوا أن فصاحته فوق كل فصاحة، وبلاغته فوق كل بلاغة.

لقد كانت تقام للعربية وبلاغتها وشاعريتها أسواق ومناظرات، فلما نزل الوحي الأجل الأعظم انفضت تلك الأسواق، وتوارت خجلا أمام هذا البيان الكريم، أنشد شوقي هذا المعنىٰ في مدحته النبوية (الهمزية النبوية) قائلا(١):

(١) الشوقيات/ أحمد شوقي/ ٤٣/ مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة

الـــذِكرُ آيَـــةُ رَبِّـــكَ الكُبـــرىٰ الَّتـــي ... فيهـــا لِبـــاغي المُعجِـــزاتِ غَنـــاءُ
صَـــدرُ البَيـــانِ لَـــهُ إِذا التَقَـــتِ اللُغـــىٰ ... وَتَقَـــدَّمَ البُلَغـــاءُ وَالفُصَـــحاءُ
لَمّـــا تَمَشّـــىٰ في الحِجـــازِ حَكيمُـــهُ ... فُضَّـــت عُكـــاظُ بِـــهِ وَقـــامَ حِـــراءُ
أَزرىٰ بِمَنطِـــقِ أَهلِـــهِ وَبَيـــانِهِمْ ... وَحـــيٌ يُقَصِّـــرُ دونَـــهُ البُلَغـــاءُ
حَسَـــدوا فَقـــالوا شـــاعِرٌ أَو ســـاحِرٌ ... وَمِـــنَ الحَســـودِ يَكـــونُ الاســـتِهزاءُ

وأما عن بيانه الشريف فيقول رحمه الله:

أَمّـــا حَـــديثُكَ في العُقـــولِ فَمَشـــرَعٌ ... وَالعِلـــمُ وَالحِكَـــمُ الغَـــوالي المـــاءُ
جَـــرَتِ الفَصـــاحَةُ مِـــن يَنـــابيعَ النُهـــىٰ ... مِـــن دَوحِـــهِ وَتَفَجَّـــرَ الإِنشـــاءُ
في بَحـــرِهِ لِلســـابِحينَ بِـــهِ عَلـــىٰ ... أَدَبِ الحَيـــاةِ وَعِلمِهـــا إِرســـاءُ

هذان البيانان العاليان لم يقضيا علىٰ أسواق الشعر ومناظرات النقدات البلاغية، وتعطيل نهضتهما، وإنما دفعاها دفعة قوية، كان من نتيجتها إنشاء هذا العلم البلاغي، والتراث العلمي النقدي الذي يحوي كنوزا من الحكمة والبلاغة، ما يزال ماؤها يسقي كل ظامئ، ويشفي كل عليل، ويمد كل دارس لخبايا هذا العلم الجليل، فأثمرت مجهودات علماء الإعجاز، والبلاغة، والتفسير، مؤلفات تعد فخرا لكل أمة تحترم تاريخها، وتقدر جهود آبائها المنشئين، وتقدس علومها الإسلامية والعربية وعلىٰ رأسها هذا العلم الشريف.

إن تقدير هذا العلم وإجلاله نابع من كونه نتاج حضارة أبهرت، وثقافة أعجزت، انتقت ثمراتها من التفاعل العجيب بين عوامل بيئية واجتماعية وثقافية انضوت تحت راية البيان الأجل الأعظم واستسلمت له بما يملك من إعجاز لا يُقاوم تأثيره العالي، ولا يُجَارىٰ علوُّ بلاغته الثري النادي.

وليس هذا فحسب، بل لأنه العلم الأشرف الذي يوقفنا علىٰ بلاغة البيان القرآني الكريم، وأنه الطريق الذي يمكننا من الإفادة من أسراره ووسائله التربوية التي يشبهها

النهر العذب الجاري، والذي يصدر عنه الظمآن راويا، وهو المصباح الذي يكشف لنا جمال البيان النبوي وآثار الهدىٰ فيه، كما أنه الطريق الأشرف لفهم التراث العربي منذ عصوره الأولىٰ إلىٰ يومنا هذا.

وقد تعرضت ثقافة الأمة بصفة عامة والثقافة البلاغية العربية الإسلامية بصفة خاصة إلىٰ اللمز والغمز، ثم الجور والظلم باتهامها تارة بالقصور، وتارة بالجمود، حتىٰ وصل الأمر إلىٰ اتهامها بالموت، ولا يبقىٰ واجب تجاهها إلا أن نصلي عليها أربعا، ثم نحملها إلىٰ مقبرتها التي لا رجوع لها منها ولا خروج، واستبدالها بنظريات أخرىٰ نابعة من بيئة غير بيئتنا، وبلاغات منشأها ثقافة غير ثقافتنا، ولم أر قوما يملكون ذهبا فيستبدلونه بطين ممزوج بماء آسن.

وكانت النتيجة أن تكدست دراسات بذلت فيها جهود، ودفعت فيها أموال، ولم تقدم إلا دراسات هجينة، وبحوثا مقطوعة وممنوعة، زادت العقل العربي والإسلامي ضعفا وهونا، ولو صرفت هذه الأوقات وتلك الأموال في دراسات تراثية تكشف ما خفي في الدراسات الأولىٰ المنشئة لعلوم البلاغة، وتفصيل مجملها، والبحث عن خبيئاتها، لقدمت للأمة خيرا، ولملئت صحائفهم أجرا.

ولم تخل-ولله الحمد-الساحة العلمية البلاغية من أئمة الهدىٰ من البلاغيين الذين ينافحون عن ثقافة الأمة وبلاغتها، ومن اللغويين المرابطين علىٰ ثغور العربية بنت القرآن، والذي بنزوله جددها وارتقىٰ بها، وحافظ عليها فلم تندثر ولم تنقطع عن الواقع ولم تتشرذم إلىٰ لغات تتقاسمها الدول، وتتنازعها الجنسيات، ودراسات هؤلاء الأئمة منارات علم، ومشاعل هدىٰ، أقيمت حارثة لتراث الأمة، وكتب لها- بفضل الله جل وعلا- أن تكون بالغة الأثر، يانعة الثمر.

وإني لأرجوه جل وعلا أن تشارك هذه الدراسة –بمحض فضله وتوفيقه-في توجيه البحث البلاغي المعاصر إلىٰ ما هو أكثر نفعا، وأعظم أثرا، وأن يكون من ثمراتها ألا

يخلو نتاج أي باحث في هذا العلم الشريف من الدراسات البلاغية المقارنة بجانب الدراسات التحليلية أو النظرية أو الموازنة بين النصوص العربية.

وأقصد بهذا المصطلح (البلاغة المقارنة) أن تختص بدراسة النظرية البلاغية العربية أو باب من أبوابها أو أحد مناهجها ومقارنتها بالنظريات الغربية القديمة أو الحديثة، أو المقارنة بين نص عربي وآخر أجنبي يتفق معه في الموضوع العام، وأن تتسم هذه المقارنات بالمعايير العامة التي ستبذل الدراسة جهدها في تحبيرها، بغرض تحديد أوجه الاتفاق أو الاختلاف بينهما، وما يمكن أن يفاد منه في الارتقاء بالدرس البلاغي المعاصر، وما يرفض رفضا قاطعا لما بينه وبين تراثنا من تعارض وتناطح.

ومن ثم هدفت هذه الدراسة إلى ما يأتي:

- تسوير مفهوم الغزو الفكري والثقافي.
- بيان خطورة هذا الغزو علىٰ ثقافة الأمة وتراثها البلاغي.
- تقرير أهمية هذا الدرس البلاغي المقارن وتوسعة ميادينه، وتحديد معايير جودته.
- سوق التطبيقات النقدية (بين فكرة رعاية المقام العربية والنظرية الحجاجية الغربية) و(بين نصين عربي-رواية زينب- وروسي –رواية جميلة) و(مقارنة بين رعاية المقام والحجاج في سياق تربية الأبناء في النظم القرآني الكريم) للتأكيد علىٰ أن منهج البلاغة المقارنة هو الأداة الأعلىٰ في الحفاظ علىٰ تراث الأمة وهويتها وأصالتها الفكرية.
- الدعوة إلىٰ عدم الاقتصار علىٰ المقارنة بين البلاغة العربية والمناهج الغربية الوافدة، والتوجه إلىٰ البلاغة عند الأمم ذات الحضارات القديمة، كالبلاغة الصينية والهندية والروسية، للتخلص من الأسر لدىٰ الغزو الثقافي الغربي الذي سمم الجو العام للدراسات الأدبية والبلاغية والنقدية.

إنها تحاول أن ترسم خريطة بحثية سبيلا إلىٰ بيان حدود الدراسات البلاغية المقارنة ومعاييرها التي ينبغي أن تتبع، ومكانتها في تراث الأمة، وتطبيق مفهوم هذا اللون من الدراسة المقارنة علىٰ مفهوم ووسائل كل من رعاية المقام والحجاج، ثم مقارنة بين روايتي زينب العربية المصرية وجميلة القرغيزية الروسية، ثم دراسة رعاية المقام في سياق تربية الأبناء في البيان القرآني الكريم، لنقف من خلال هذه الدراسة علىٰ أن الدراسات البلاغية المقارنة فريضة علمية وضرورة ثقافية.

ولا يخفىٰ ما تحتاجه هذه الدراسات من جهد وكد واستفراغ الجهد والطاقة، وكل ذلك يهون في سبيل تطوير هذا العلم والارتقاء به، والحفاظ عليه والدفاع عنه، وتقديم النصح من خلاله للأمة وحماية عقولها، فشرف هذا العلم المبارك يتطلب تضحية وبذلا لإنقاذ مجتمعاتنا من براثن الغزو الفكري والثقافي، وتجديد شباب الأمة وتوهج خيريتها، وبث روح العزة والكرامة والسعي إلىٰ المعالي في أمور الدنيا ودرجات النعيم الأبدي في الآخرة، وعلوم البلاغة وتأثيرها التربوي هي من أعلىٰ الطرق المثلىٰ لهذا الغد الأفضل بحول الله وتوفيقه وقوته.

ولم أجد دراسة –فيما أعلم– قامت لهذا الأمر بهذا المنهج الذي قصدته هذه الدراسة، ومن الدراسات التي تناولت هذا الموضوع دراسة بعنوان: (**البلاغة المقارنة-آفاق وتطلعات**)[1] للدكتورة هنادي محمد بحيري، وبذلت فيها جهدا وفيرا في الحديث النظري عن نشأة البلاغة العربية والفكر البلاغي المقارن عند أسلافنا العرب، وانغمست في الفكر المقارن عند غير العرب والترجمة ومستقبلها وأهميتها في

(١) بحث منشور في مجلة كلية اللغة العربية بالمنصور/ جامعة الأزهر/ ع ٣٠/ ج٦/ ١٤٣٢-٢٠١١م

مستقبل الثقافة العربية، ودراستنا تتشابك معها في جوانب وتفترق في جوانب أخرىٰ، لاختلاف ما تهدف إليه كل دراسة.

وقد بدأت دراستي بتناول مفهوم الغزو الفكري والثقافي وأسلحته ومناهجه ومؤسساته وذلك لصلته الشديدة بموضوع الدراسة ولكونه تمهيدا لا غنىٰ عنه في سياق البحث، ومن ثم بنيت دراستي علىٰ مقدمة ومبحثين: المبحث الأول: البلاغة والغزو الفكري والثقافي. المبحث الثاني: البلاغة المقارنة: النظرية والتطبيق. ثم خاتمة بأهم ثمرات هذه الدراسة ونتائجها، وقائمة بالمصادر والمراجع.

والله أسأل توفيقا وسدادا وإخلاصا من قبل ومن بعد، فهو جل جلاله ولي ذلك والقادر عليه. وصل اللهم وسلم على النبي الأكرم وعلى آله وصحبه.

المبحث الأول: البلاغة والغزو الفكري والثقافي

الغزو بين الحقيقة والمجاز:

جلي من التناول المعجمي لمادة (غزا) أنها تدل علىٰ الطلب والقصد، يقول ابن فارس: (الْغَيْنُ وَالزَّاءُ وَالْحَرْفُ الْمُعْتَلُّ أَصْلَانِ صَحِيحَانِ، أَحَدُهُمَا طَلَبُ شَيْءٍ، وَالْآخَرُ فِي بَابِ اللِّقَاحِ. فَالْأَوَّلُ الْغَزْوُ. وَيُقَالُ: غَزَوْتُ أَغْزُو. وَالْغَازِي: الطَّالِبُ لِذَلِكَ، وَالْجَمْعُ غُزَاةٌ وَغَزِيٌّ أَيْضًا، كَمَا يُقَالُ لِجَمَاعَةِ الْحَاجِّ حَجِيجٌ. وَالْمُغْزِيَةُ: الْمَرْأَةُ الَّتِي غَزَا زَوْجُهَا. وَيُقَالُ فِي النِّسْبَةِ إِلَىٰ الْغَزْوِ: غَزَوِيٌّ. وَالثَّانِي: قَوْلُهُمْ: أَغْزَتِ النَّاقَةُ، إِذَا عَسُرَ لِقَاحُهَا. وَقَالَ قَوْمٌ: الْأَتَانُ الْمُغْزِيَةُ: الَّتِي يَتَأَخَّرُ نِتَاجُهَا ثُمَّ تُنْتَجُ)(١)

ويقول ابن منظور: (غزا: غزا الشيء غزوا: أراده وطلبه. وغزوت فلانا أغزوه غزوا. والغزوة: ما غزي وطلب، ومغزىٰ الكلام: مقصده. وعرفت ما يغزىٰ من هذا الكلام، أي: ما يراد)(٢)

وحقيقته في طلب العدو وملاقاته، قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَقَالُواْ لِإِخۡوَٰنِهِمۡ إِذَا ضَرَبُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَوۡ كَانُواْ غُزًّى لَّوۡ كَانُواْ عِندَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ لِيَجۡعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسۡرَةٗ فِي قُلُوبِهِمۡۗ وَٱللَّهُ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ١٥٦﴾ [سورة آل عمران:١٥٦]، و(غُزًّىٰ) أي: غزاة، يقول القرطبي: (غُزَاةً فَقُتِلُوا. وَالْغُزَّىٰ جَمْعٌ مَنْقُوصٌ لَا يَتَغَيَّرُ لَفْظُهَا فِي رَفْعٍ وَخَفْضٍ، وَاحِدُهُمْ غَازٍ، كَرَاكِعٍ وَرُكَّعٍ، وَصَائِمٍ وَصُوَّمٍ، وَنَائِمٍ وَنُوَّمٍ، وَشَاهِدٍ وَشُهَّدٍ، وَغَائِبٍ وَغُيَّبٍ. وَيَجُوزُ فِي الْجَمْعِ غُزَاةٌ مِثْلَ قُضَاةٍ، وَغُزَّاءُ بِالْمَدِّ مِثْلُ ضُرَّابٍ وَصُوَّامٍ. وَيُقَالُ:

---

(١) مقاييس اللغة/ ابن فارس/ ٤/ ٤٢٣/ باب الغين والزاي وما يثلثهما/ ت/ عبد السلام محمد هارون/ دار الفكر/ ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م

(٢) لسان العرب/ مادة/ غزا/ دار صادر – بيروت ط٣- ١٤١٤ هـ

غُزًّىٰ جَمْعُ الْغَزَاةِ)[١]، وهي من فرائد القرآن الكريم، الدالة علىٰ غزو العدو وطلبه، واصطفيت لمناسبة سياقها، فقبلها ذكر البيان الكريم (ضربوا في الأرض) وهو خروج للسفر، وسمي ضربا لكون السير ضرب في الأرض بالأرجل[٢]، والغزو الخروج في طلب العدو[٣]، لذا اصطفاها البيان الكريم دون القتال وغيره، فقد لا يلزم في القتال خروج، ولعله من مراعاة النظير.

وأمر الغزو العسكري ووسائله وأدواته وخططه ظاهر، وطريق مواجهته معروف، وأما الخطر الأخبث الذي لا يحسه إلا من كان ذا بصر وبصيرة، وعقل وعلم، فهو الغزو الفكري والثقافي، حيث لا تجد فيه الأسلحة المادية المعروفة قديما وحديثا، وإنما سلاحه الكلمة والقلم والمكر والدهاء والجدال وبث الشبهات، والقدرة الفاجرة علىٰ التشويه وتغيير الحقائق، وتحسين القبيح، وتقبيح الحسن.

وقد حفل البيان القرآني الكريم بمواقف هذا الغزو وقادته من الشياطين والسفهاء والمعوِّقين والمرجفين، وغيرهم، وحدد العديد من شبهاتهم ومجادلاتهم وتغييرهم الحقائق وسخرياتهم واستهزاءاتهم، ولعل في ذكر الكثير منها حكمة تنبه الأمة وتوقظ حاسة الحذر لديها، وتبعث فيها روح العزيمة العازمة، والإرادة القاهرة لمواجهة هذا

---

(١) الجامع لأحكام القرآن/ ٤/ ٢٤٦/ ت/ أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش/ دار الكتب المصرية – القاهرة/ ط٢- ١٣٨٤ هـ - ١٩٦٤م، وبنظر/ مجامع البيان عن تأويل آي القرآن/ ابن جرير الطبري/ ٧/ ٣٣٠ وما بعدها/ ت/ محمود شاكر/ دار التربية والتراث/ مكة المكرمة.

(٢) التحرير والتنوير/ الطاهر بن عاشور/ ٤/ ١٤١/ الدار التونسية للنشر – تونس- ١٩٨٤ هـ

(٣) المفردات في غريب القرآن/ الراغب الأصفهاني/ ٦٦/ ت/ صفوان عدنان الداودي/ دار القلم، الدار الشامية - دمشق بيروت/ ط١ ١٤١٢هـ٦

الخطر الداهم في كل زمان، وعلىٰ أي مكان، ولكيلا تضع سلاحها، ولا تتوقف عن تطويره وتنويعه ليناسب تجدد مكرهم وشرهم.

الغزو الفكري مصطلح حديث لمنهج قديم، يظهر من عرضنا السابق أنه مجازي الدلالة، حيث شبه الغزو الفكري بالكلمات والأقلام والأفكار، بالغزو العسكري بالدبابات والصواريخ والطائرات، وحذف المشبه به ودل عليه (الغزو) علىٰ سبيل الاستعارة المكنية، وهي صورة واضحة الدلالة، بالغة الدقة، واسعة الظلال والإيحاءات، بليغة البيان عن هذا الفكر الهادم، والخطر الداهم، في صورة كاشفة عن الآثار المدمرة، فكما نعيش الآثار الكارثية في بلاد المسلمين التي تداعت عليها الأمم شرقا وغربا، بقيادة اليهود أحفاد الخنازير، فإن الغزو الفكري يفعل بالعقل الإسلامي والوجدان الإسلامي أخطر مما يعمل الغزو العسكري بالبلاد.

لقد جرب أعداء الأمة غزاوتهم العسكرية الصليبية، فلم يفلحوا وانهزموا في مواقع عديدة، فلما فكروا ودبروا وقدروا اتخذوا جيوشا تحمل القلم والورق وألسنة تقطر سما في كوب من العسل، ولم ينالوا من الأمة نيلا ولم يطأوا منها موطئا إلا وقد سبق غزوُهم الفكري غزوَهم العسكري، حتىٰ أصبحت الأمة تنظر إلىٰ بعض منها وهو يباد وتدفن رأسها في الرمال، وهي تعلم أن الزحف سيكون عليها، ولكن التخدير المرعب الذي أحدثه الغزو الفكري والثقافي قتل في الأمة النخوة والنجدة ونصرة إخوانهم من المسلمين المستضعفين.

وخلاصة أهداف الغزو الفكر (أن تظل بلدان العالم الإسلامي خصوصا والعالم النامي عموما تابعة لتلك الدول الكبيرة المتقدمة تبعية غير منظورة، وفي هذه التبعية يكمن دهاء تلك الدول المتبوعة وذكاؤها، فليس أقتل للشعوب من أن تحس بالحرية

والاستقلال بينما هي ترسف في قيود الذل والتبعية)[1]، ونتيجة ذلك غالبا ما تتبني هذه الدول-للأسف-نظريات متبوعيها فكريا وثقافيا، وتهميش فكرها الماجد، وثقافتها التي بنيت عقول أجيال بعد أجيال حتىٰ صغرت أمامها ثقافات الآخرين.

وهذا ما يؤدي بدوره إلىٰ تشويش عقول المجتمعات المسلمة، وضعف مناعتها أمام الشواذ فكرا وسلوكا، والإحساس بالدونية أمام كل وافد مهما كان صغيرا حقيرا، وها نحن نرىٰ من يستحقر بني جلدته ويستصغر تاريخ أمته، معظما ثقافة الآخرين، معربا عن تقديره لها أينما حل أو ارتحل، داعيا إليها، مناضلا في سبيلها، ولو تطلب الأمر أن يدفع ثمن ذلك لدفعه؛ لينال رضا أربابه الذين تبنوه وصرفوا عليه ببذخ.

دعيت إلىٰ غداء مع أساتذة الجامعات في إحدىٰ دول آسيا الوسطىٰ في بيت السفير، وكان الرجل مرحا مرحبا كريما في استقباله ومائدته، وتجاذبنا أطراف الحديث حتىٰ وصلنا إلىٰ أهمية الحفاظ علىٰ لغة الأمة وآدابها وثقافتها، وأشرنا إلىٰ ضرورة تعريب العلوم، وإذا به يعتدل في جلسته ويحاجج في سبيل رفض هذا التوجه، وبرهانه أن الإنجليزية هي لغة العالم تكنولوجيا وعلميا، ولن نتقدم بدونها، وبالمقابل بُيِّنَ له أن هذا القول غير صحيح وسيقت له أدلة عقلية وعلمية، وكان آخرها أن التقدم في كل الحضارات والثقافات في أي أمة كان مرهونا بتقديرها للغتها، وتفوقها في علومها وآدابها، وكانت حضارة العرب والمسلمين وثقافتهم في العصور الأموية والعباسية وما بعدهما قاطرة الحضارات والثقافات الأخرىٰ، ولم يحدث ذلك إلا باحترام الأمة للغتها، ونبوغ أبنائها في تأسيس علومها والارتقاء بآدابها، ثم تلتها قاطرة العلوم الأخرىٰ، وتأسست حضارة هي أسُّ الحضارة الغربية ومنبعها، وكتبهم المنصفة صادحة بذلك، وشاهدي من هذا الموقف أن ما تردد من عدم صلاحية

(١) الغزو الفكري والتيارات المعادية للإسلام/ د/ علي عبد الحليم محمود/ ٨/ نشر إدارة الثقافة والنشر بجامعة الإمام محمد بن سعود-١٤٠١هـ-١٩٨١م

العربية لتكون قاطرة التقدم الحضاري والثقافي هو من أخطر نجاحات الغزو الفكري والثقافي الذي تبنته عقول الكثير من مسئولي القوم وقادتهم دون الشعور بهذا الفيروس الذي لا علاج له إلا بالتوعية النشطة ولله الأمر من قبل ومن بعد.

وإذا كان من اللازم إلقاء نظرة سريعة علىٰ تاريخ هذا الغزو الخبيث، فإن البيان القرآني الكريم قد كفانا هذه المئونة، وذكر لنا بأسراره البلاغية مواقف عديدة، فقوم نوح-عليه السلام-منذ آلاف السنين كانوا يسخرون منه وممن معه من المؤمنين، ليضعفوا همتهم وهم يصنعون السفينة مشروع نجاتهم الوحيد، وليصرفوا الناس عنهم، قال تعالىٰ: ﴿وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ ۚ قَالَ إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [سورة هود:٣٨] ، ولاصطفاء (كلما) وقع دلالي عميق في الحدث، فلم تكن سخريتهم موقفا عابرا، وإنما كانت سلوكا مكررا متسقا مع دلالة المضارع (يصنع) علىٰ التجدد الاستمراري.

وهذا شعيب-عليه السلام- يواجه بالسخرية لهدم ما جاءهم به، قال تعالىٰ: ﴿قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُا۟ ۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾﴾ [سورة هود:٨٧] ، وسر الاستفهام البلاغي التكذيب والسخرية، فالصلاة هي أخص ما يتميز به المسلمون في أي دعوة نزلت إليهم، ومن ثم توجهوا إليها لتكون نقطة ضعف بدل ما هي نقطة القوة ذات التأثير في حياة وسلوك المؤمنين، وهذه من محاولات التلبيس علىٰ فكر المؤمنين بالاستهزاء بهم وبما يتعبدون به، هذا من جانب ومن جانب آخر يريدون أن يحولوا بين المنهج الرباني والنظام الاقتصادي الفاسد القائم بينهم، وكأنني أسمع جملتهم تتردد علىٰ ألسنة أشياعهم بيننا، ممن يقولون ما علاقة الدين بسلوكياتنا الشخصية؟

وما علاقة الدين باقتصادنا ونظامنا المالي؟ إنها غزوات فكرية تفوه بها قوم شعيب من آلاف السنين.

وهذا فرعون يسخر من موسىٰ-عليه السلام: ﴿قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرۡسِلَ إِلَيۡكُمۡ لَمَجۡنُونٌ ﴿٢٧﴾﴾ [سورة الشعراء:٢٧] ، والمتدبر في نظم الآية يتعجب من بجاحة الطاغية، فقد أكد كلامه ب (إن) فهل أراد أن يقنع المخاطبين بأن قوله مما يجب ألا يشك فيه أحد، أم أنه يعاني من تأثير كذبه علىٰ نفسه، ويريد أن يؤكد لنفسه ما لا يقتنع هو به؟ ثم أضاف (رسول) إلىٰ (كم) ليقطع بأنه غير معني بدعوته ولا بما جاء به، فهو لا يخصه، ثم يكرر معنىٰ (إن رسولكم) بقوله: (الذي أرسل إليكم) ليقاوم انشغاله برسول الله موسىٰ وتأكيد أنه غير معني به ولا بما معه، وهذا يساعده في حكمه علىٰ موسىٰ-عليه السلام- بأنه مجنون، وسبب اتهامه بالجنون أنه(قال خلاف ما نحن عليه، وخالفنا فيما ذهبنا إليه، فالعقل عنده وأهل العقل، من زعموا أنهم لم يخلقوا، أو أن السماوات والأرض، ما زالتا موجودتين من غير موجد، وأنهم بأنفسهم خلقوا من غير خالق، والعقل عنده، أن يعبد المخلوق الناقص، من جميع الوجوه، والجنون عنده، أن يثبت الرب الخالق للعالم العلوي والسفلي، والمنعم بالنعم الظاهرة والباطنة، ويدعو إلىٰ عبادته)(١) استخفافا بالعقول وتسفيها للمخالفين.

وفي غزوة فكرية أخرىٰ يقول عنه القرآن الكريم: ﴿وَنَادَىٰ فِرۡعَوۡنُ فِى قَوۡمِهِۦ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَلَيۡسَ لِى مُلۡكُ مِصۡرَ وَهَٰذِهِ ٱلۡأَنۡهَٰرُ تَجۡرِى مِن تَحۡتِىٓۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمۡ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٞ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوۡلَآ أُلۡقِىَ عَلَيۡهِ أَسۡوِرَةٞ مِّن ذَهَبٍ أَوۡ جَآءَ مَعَهُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ مُقۡتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾﴾ [سورة الزخرف:٥١-٥٣]، محاولات ممنهجة

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان/ عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي/ ٥٩٠/ ت/ عبد الرحمن بن معلا اللويحق/ مؤسسة الرسالة/ ط١/ ١٤٢٠هـ-٢٠٠٠ م

لغزو عقول شعبه، فيقارن بين ما يملك من ماديات ومظاهر حكم، وبين فراغ يد موسىٰ-عليه السلام- من ذلك، وسلك طريق الاستفهام المتبوع بالنفي (أليس) وغرضه التقرير المغموس في الفخر والكبر، متهكما من نبي الله –عليه السلام، فوصفه بال (مهين) لأنه يمتهن نفسه في قضاء حوائجه، وبعقدة لسانه (ولا يكاد يبين) ليظهر لهم الفرق الكبير- فيما يرىٰ- بينهما. وألمح وراء السياق نفسا فرعونية فاسدة مضطربة ومهانة، وتدفع عن نفسها هذا الضعف والمذلة بهذا القول المليء فخرا وكبرا.

وهل نجح في تحقيق مقصده؟ نعم، حيث يكشف البيان الكريم عن نجاح غزواته الفكرية، وشبهاته الشيطانية، وسيطرته علىٰ عقول قومه، قال تعالىٰ: ﴿فَٱسۡتَخَفَّ قَوۡمَهُۥ فَأَطَاعُوهُۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمٗا فَٰسِقِينَ ٥٤﴾ [سورة الزخرف:٥٤] ، وهذا ناقوس خطر ونذير شؤم، يحذر من خطورة الغزو الفكري، وينبه إلىٰ قدرته علىٰ تفسيق النفوس وتسطيح العقول، وأنه أحد أساليب الطغاة للسيطرة علىٰ العقول والتحكم في الشعوب.

لم تتوقف الغزوات الفكرية منذ آلاف السنين، حتىٰ جاءت الرسالة الخاتمة، وانبرىٰ الكفار في الصد عن دعوة الله بالكلمة وهم أهل بلاغة وفصاحة، وبالفكر الذي كان لليهود-أخزاهم الله-دور خبيث في هذا الميدان، وقد تكفل البيان الكريم بذكر شبهاتهم والرد عليهم، وفي سورة (الأنعام) وحدها جاءت الشبهات تترىٰ، وبلغ حضور الفعل (قل) في سياق السورة الكريمة مبلغا لافتا، وهو أقوىٰ وأقصر أداة تنبيه في السياق القرآني الكريم(١)، مما يجلي أن ما بعد الغزو الفكري من تخريب لعقول

(١) ينظر/ كلا ومواضعها ودلالتها في الذكر الحكيم/ د/ إبراهيم داوود/ ٥٧، ٥٨، مكتبة كلية اللغة العربية بالمنوفية

الأمة وتدميرها وتشويه وجدانها من الأهمية بمكان، فلا ينبغي أن يفوت هذا الإدراك أحدا، ولكثرة هذه الشبهات والردود عليها استخرج العلماء من هذه السورة قواعد التوحيد(١).

واتخذت الشبهات سبلا متنوعة وطرقا متلونة، فمنها ما كان حول الألوهية والربوبية وتعدد الآلهة والوسطاء بين الله وخلقه، ومنها ما كان حول القرآن الكريم وأنه أساطير الأولين، وأنه شعر وقول بشر، ومنها ما كان حول النبي الكريم-صلىٰ الله عليه وسلم- ومن اتبعه سخرية واستهزاء، وهذا البيان تحصين للدعاة أولا، وللأمة ثانيا، لتنتبه إلىٰ مسالك الغزاة، وأنهم ليسوا المحاربين في ميدان المعارك فقط، وإنما هناك الأخطر الذي يطمس معالم الخير والهدىٰ في النفوس، ويغلف العقول بالجهل والخبل والشوشرة.

ولم تتوقف الغزوات الفكرية التي قادها القساوسة والمتعصبون من المثقفين الغربيين، ولنستمع إلىٰ ما قاله درمنجهم: (إن الهوة التي احتفرها المسيحيون والمسلمون فيما بينهم لم تكن في الحقيقة بين الإسلام والنصرانية وإنما كانت نتيجة المنازعات المبنية علىٰ سوء التفاهم، فأهل الكتاب كانوا بادئ ذي بدء أنصارا لمحمد (صلىٰ الله عليه وسلم) ثم لم يفتأوا أن أبوا الاعتراف بنبوته وأن هزئوا به، كما أن المسلمين هم أيضا من جهتهم تباعدوا ما أمكنهم عن النصرانية وأن مفسري القرآن بدلا من أن يظهروا ما بين الديانتين من الموافقات اجتهدوا في إثبات ما بينهما من المفارقات، فالقرآن أقرب كثيرا إلىٰ النصرانية من السنة المروية، وعلىٰ كل حال الأحاديث المنسوبة إلىٰ الرسول (صلىٰ الله عليه وسلم) هي التي حفرت هذه الهوة

(١) بنظر/ علوم القرآن عند الشاطبي من خلال كتابه الموافقات/ محمد سالم أبو عاصي/ ١٠٢/ دار البصائر – القاهرة/ ط١- ١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٥ م

بين الديانتين)[١]، وبنظرة سطحية يظن القارئ أنه حسن النية، وأنه يسعىٰ للإصلاح ونبذ العداوات، ولكن المتدبر يقف علىٰ غزوة فكرية مقيتة مغلفة بغلاف واه لمن نور الله بصيرته، حيث إنه قدم ما يلهي عن سوء طويته في اتهامه الحديث الشريف بإشعال العداوة بين الإسلام الحنيف ونصرانيتهم، وما السنة إلا شارحة للقرآن ومبينة عنه، وإذا كان هذا مما يظن فيه حسن النية، فكيف بمن بدت البغضاء من أفواههم وما تخفي صدورهم أكبر!

ومن أخبث من قادوا الغزوات الفكرية أئمة الاستشراق الذين عنوا بدراسة الإسلام والمسلمين وعلومهم العديدة في العقيدة والسنة والشريعة واللغة والتاريخ والاجتماع، وتطورت أسلحتهم وتعددت مناحيها كالكليات المتخصصة والأقسام المعنية والبحوث والدراسات والبرامج ووسائل الإعلام، وغايتهم الأولىٰ إضعاف المسلمين وتشويه حضارتهم وتفتيت وحدتهم وتضليل عامتهم وتحييد خاصتهم وتنصيرهم إن استطاعوا إلىٰ ذلك سبيلا.

ولا يخفىٰ علىٰ كل لبيب الآثار المدمرة لغزو المستشرقين الفكري للعالم الإسلامي من تفريخ جيل مهووس بالمظاهر الغربية، ومبهور بظاهر حياتهم الدنيا، بل علت السفح مدرسة فكرية تسخر من دينها وفكرها وتبذل الطاقة وتستفرغ الجهد في التطاول علىٰ المقدسات وبث روح خاطئة تجنح إلىٰ نقد النص المقدس كما ينقد النص الإنساني، وما محاولة ترسيخ عقيدة الدين الإبراهيمي ومركز تكوين عنا ببعيد.

ومن أجل تحقيق الهدف ذاته قامت الحركة التنصيرية بعد فشل الحروب الصليبية وانهزامها أمام المقاومة الإسلامية التي دحرتها وقضت عليها وأزالت آثارها، فكان لشياطينهم منهج آخر، أشد خبثا من الغزو الصليبي العسكري، وهو الغزو

(١) نقلا عن الغزو الفكري والتيارات المعادية للإسلام/ ١٢.

الصليبي الفكري الديني، فتمددوا في قارة أفريقيا وآسيا وأسسوا الجمعيات التنصيرية في العديد من بلاد المسلمين، وكانت ميادين الطب والتعليم والنوادي الاجتماعية والنوادي الرياضية ووسائل الإعلام ثم وسائل التواصل الاجتماعي أهم وسائلهم.

وعملوا علىٰ تشويه الإسلام وتفتيت وحدة الأمة المسلمة، وخداع شباب الأمة بأن النصارىٰ ليسوا أعداء للمسلمين، ليتمكنوا من تضليل الشباب وتحرير النساء من فرائض الإسلام وأخلاقه، ولا يغيب نجاحهم في كل ما قصدوا إليه ومظاهر ذلك بادية في ضياع مكونات الأمة ومملكاتها واحدة تلو الأخرىٰ والأمة في غفلتها سادرة، وتحت سوط عملاء أعدائها ذليلة خاضعة.

ثم تأتي الداهية الثالثة وهي الاستعمار الصليبي للعالم الإسلامي، مهدت له الغزوات الفكرية للمستشرقين والدعوات التنصيرية للمبشرين، (واتخذ الاستعمار الحديث أشكالا متعددة، ولبس لبوسا متنوعة منها: الاحتلال العسكري، والاستعمار الاقتصادي عن طريق الشركات، وربط العملات المحلية بعملات الدولة المستعمرة، والقروض والمساعدات وإقامة المشاريع. والمعاهدات غير المتكافئة بين الدولة المستعمرة القوية والدولة المستعمرة الضعيفة فتكون المعاهدة بالطبع لصالح الدولة القوية. والحماية والانتداب والوصاية)(١)

ولم يخل هذا الغزو العسكري من غزوات فكرية لتسهل له الدخول إلىٰ المجتمعات المسلمة من الأبواب الناعمة، ولتعبد له طريق الاستمرارية، وكانت حجتهم حق القوة، والتمدن والتحضر والرأفة بالمستضعفين وحق الحياة واستغلال الثروات، ولعل للغزو الفكري النصيب الأوفر من هذه التسمية الخبيثة (الاستعمار) وفي الحقيقة هو استخراب واستحمار للعقول الساذجة الجهولة.

---

(١) حاضر العالم الإسلامي وقضاياه المعاصرة/ د/ جميل عبد الله محمد المصري/ ٨٩/ مكتبة العبيكان – الرياض–ط٦ ١٤٢٨ه–٢٠٠٧م

وقد حقق بالسيف ما عمل علىٰ تحقيقه أئمة الضلال والغزو الفكري من المستشرقين والمبشرين فقسموا الأمة واستضعفوها وأهانوا كبرياءها وأشعروها بالذلة والصغار، وفرضوا عاداتهم وسلوكياتهم وقوانينهم علىٰ البلاد المسلمة المستضعفة، ومحاربة روح المقاومة والتحرر، وتشويه تاريخ المسلمين وتحقير أمجادهم، والاستحواذ علىٰ ذوي النفاق والأهواء واستمالتهم ليكونوا لهم أعوانا علىٰ أمتهم.

ولعل الرابعة هي الأخطر علىٰ العالم كله وعلىٰ المسلمين بصفة خاصة، وهي (الصهيونية العالمية) وهي حركة يهودية خبيثة، غايتها الإفساد في الأرض، وقد بلغت أوجها الآن ولعله الإفساد الثاني الذي أبان عنه قوله تعالي: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ۝٤﴾ [سورة الإسراء: ٤]، ويتمثل إفسادها في (القضاء علىٰ المبادئ والقيم وكل ما هو غير يهودي، ومن مراحلها محاولة إقامة وطن لليهود في فلسطين المسلمة العربية، وأما بقية مراحلها فهي خدمة اليهودية العالمية، حتىٰ يصبح العالم كله –مسلمون وغير مسلمين–في قبضة اليهود وتحت سيطرتهم)(١)

الصهيونية هي أخطر حركة في الغزو الفكري والثقافي علىٰ العالم الإسلامي بصفة عامة وعلىٰ الأمة العربية بصفة خاصة، فقد احتلت الأرض، وهتكت العرض، ودمرت الحرث والنسل، والأمة مسجونة في سجن الجبن والخذلان، وسببه ما قامت به الآلة الإعلامية الصهيونية علىٰ مدار عشرات السنوات من تشويه الإسلام وكل ما يرتبط به من حضارة وتاريخ وثقافة، ووصل الأمر إلىٰ مطالباتهم بحذف الآيات القرآنية التي تتناول مخازي اليهود وسوءاتهم من مناهج الدراسة، وتكوين جيش من المثقفين

(١) الغزو الفكري والتيارات المعادية للإسلام/ ١٣٣.

ورعايتهم وحمايتهم للعمل علىٰ تمهيد العقول لقبول الغزو العسكري وتقبله وترجي التقدم والرقي من وراء الصهيونية العالمية.

ومن يتابع ما يحدث الآن في الأرض المقدسة يدرك حجم نجاحاتهم بصورة مرعبة، ولعل آخر ما وقعت عليه عيني من غزواتهم صدور كتاب بعنوان (الحرب) لبوب وودورد، وقد نجح في صناعة دعاية أدخلته إلىٰ السوق العربي الإلكتروني ومن ثم إلىٰ العقل العربي بصورة خبيثة، وكانت دعايته عبارة عن تسجيل مواقف القادة العرب الذين قصروا أو خانوا القضية الفلسطينية، مما جعل السذج يقبلون علىٰ تناوله علىٰ جميع الوسائل المقروءة والمسموعة، وبالتفتيش البسيط في محتويات الكتاب وجدته لا يتناول هذه المواقف إلا في صفحات معدودة(١)، وأما بقية الكتاب فيقطر سما صهيونيا ضد المسلمين، ويسوق للكذب الصهيوني بطرق شتىٰ ووسائل متعدد. وما هذا إلا نموذج في تسويق كذبهم، وخداع المشاهير علىٰ الوسائل الإعلامية والاجتماعية الحديثة، فقاموا بنشر أكاذيبهم والتسويق لها وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا.

وما كان يتخيل أن تنجح هذه الحركة وما كان يجب لها أن تنال موطئا من عقول الأمة وأرضها، حيث إن البيان القرآني الكريم كشف لنا مخازيهم واعتدائهم علىٰ الذات الإلهية وقتلهم الأنبياء وتحريف الكلم عن مواضعه، ثم ما كان منهم من عداوة لله ولرسوله، وما كان من غزوات النبي معهم (بني قينقاع وبني النضير وبني قريظة) فهذا كله كفيل بأن يحصن عقول الأمة ويحمي زمارها، فكيف تغافلت الأمة وانهارت أمام أقدام بني صهيون؟!

(١) ينظر/ الحرب/ بوب وودورد/ ٢٥٤ وما بعدها، دار النشر/ سايمون وشوستر/ ١٥-١٠-٢٠٢٤م

موقف الأمة من الغزو الفكري:

ومن الضروري أن نتلبث أمام تقبل الناس لفكرة وجود الغزو الحضاري أو نفيهم لها والاعتراض عليها، فمن الإشكالات الكبيرة التي لا يتصور التخلص منها قريبا، أن مفهوم الغزو الفكري مرفوض عند فئة ليست بالقليلة في مجتمعاتنا ممن يرون أنه وهم لا حقيقة له، و(ينطلقون من تصورهم لعالم اليوم باعتبار-رغم الحدود الدولية السياسية والحواجز الجغرافية وبسبب من التقدم الهائل في ثمرات ثورة الاتصال- ينطلقون من تصورهم لعالم اليوم باعتباره وطنا واحدا لحضارة واحدة، يسمونها: "حضارة العصر" "الحضارة العالمية" أو "الحضارة الإنسانية"، ويتصورون الأمم والشعوب والقوميات مجرد درجات ومستويات في الواحد لهذه الحضارة الواحدة)(١)، وليس هذا بالأمر الهين، وإنما فيه من الخطر أعظمه، فقد أصبحوا من أدوات هذا الغزو الخبيث وأسلحته، وحينما يكون الدعاة إليه من خارج دوائرنا الدينية والوطنية فمن السهل مواجهتهم، والخطر الداهم لما يكون هؤلاء من بني جلدتنا، أسماؤهم أسماؤنا ولباسهم لباسنا وألسنتهم ألسنتنا، حينئذ يدخل الأمر علىٰ الدهماء أيا ماكنت مراكزهم أو قدراتهم، ممن جهلت عقولهم وسقمت قلوبهم وطمس علىٰ بصيرتهم.

وفي مواجهة هؤلاء نهض نفر ممن يحيطون علما بخبث أعداء فكرنا وثقافتنا داعين (إلىٰ ضرورة احترام "الحدود الحضارية" .. لأن العالم في تصورهم، هو أقرب ما يكون إلىٰ "منتدىٰ عالمي لحضارات متميزة" .. تشترك أممها في عضوية هذا المنتدىٰ، ومن ثم فإن بينها ما هو "مشترك حضاري عام" .. وأيضا، فإن هذه الأمم تتمايز حضاريا، الأمر الذي ينفي الوحدة الحضارية، ويستدعي الحفاظ علىٰ

(١) الغزو الفكري/ د/ محمد عمارة/ ٨/ دار الشروق/ ط٢/ ١٤١٨ه-١٩٩٧م

"الهوايات" الحضارية المتميزة)[١]، وهذا يستدعي من كل أمة الحفاظ علىٰ هويتها، وترسيخها في نفوس أبنائها، واليقظة والحذر من دعاة الغزو الفكري، والكشف عن أسلحتها الظاهرة والخفية؛ لتملك ما يعين علىٰ مواجهتهم، والتصدي لغزواتهم الفكرية صغيرة كانت أو كبيرة، وألا تتهاون في هذا السبيل أبدا، وأن تسخر كل مواردها العلمية والمالية وتجييش أولي الفكر والعلم لمواجهتهم بكل حزم.

وهذا لا يعني الانغلاق وإنكار مميزات الحضارات الأخرىٰ، فهذا بلا شك موت للفكر، وضمور للعقول، وتخلف علمي وعسكري واقتصادي، وإنما يجب أن نقف موقفا بصيرا، يرىٰ أن العالم ليس حضارات منعزلة، يمكن لكل حضارة الاكتفاء بذاتها، وإنما يجب أن نبصر في الحضارات ما هو عام مشترك، وما هو خاص بحضارتنا، فنجتهد في دراسة العام وتحصيله والإفادة من ثمراته، والمساهمة في تطويره والارتقاء به لصالح الإنسانية؛ لتكون لنا اليد العليا. وأن نكون جنودا حارسين لخصائص حضارتنا الخاصة فلا تنام لنا عين، ولا يرف لنا جفن.

الغزو الثقافي:

والغزو الثقافي من أهم مجالات الغزو الفكري وأخطرها، حيث إن مجال التعليم والثقافة عمود فقري لأي مجتمع من المجتمعات بصفة عامة وللمجتمع المسلم بصفة خاصة، فمنذ أن أشرقت الأرض بنور ربها مع أول كلمة من الرسالة الخالدة (اقرأ) قامت دولة الإسلام وحضارتها بسماتها العامة وخصائصها التي عرفت بها علىٰ العلم والمعرفة، وارتبطت جميع مجالات هذه الدولة وتلك الحضارة بالعلم، وبخاصة في مجالها الديني واللغوي.

وقد فهم الأعداء هذه الميزة الإسلامية، فآتوا الأمة من بابها، (والسيطرة عليه سيطرة علىٰ مستقبل الأمة وتحكم دقيق في خطواتها علىٰ الطريق في كافة ألوان النشاط

(١) الغزو الفكري / ٩.

البشري، وما دخل الاستعمار بلدا إلا كانت ضربته الأولىٰ نحو سياسة التعليم ونظمه في هذا البلد)[١]، فاعتمد علىٰ تشويهه وتحقيره، والدعوة إلىٰ الثورة عليه، وفرض خططهم التعليمية ونظمهم الثقافية.

كان التعليم في بلاد الإسلام يهدف إلىٰ بناء شخصية مسلمة بناء متكاملا في أمور الدين والدنيا معا، كانت النظم التعليمية وقتئذ تمزج (بين المعلومات والحقائق الدينية الإسلامية وبين المعلومات والحقائق التي تتطلبها حاجات الناس في مجتمعاتهم المتغيرة، فكانت سياسة هذه المدارس تقوم علىٰ تكوين المسلم الفاهم لدينه القادر علىٰ العمل والكسب الشريفين)[٢]، فعمد الاستعمار العسكري والثقافي إلىٰ إفساد هذه النظم التعليمية وتشويه تلك المناهج، واستبدلوها بمناهج غربية، ونظم فاسدة، شوهت الشخصية المسلمة، فلا هي فازت بدين، ولا كسبت دنيا.

لك أن تتخيل نتيجة تعيين المستر (دنلوب) مستشارا لوزارة المعارف المصرية من قبل (كرومر) فوضع المناهج التي ما تزال روحها الخبيثة تعمل حتىٰ يومنا هذا، ونشأ جيل تطغىٰ عليه روح التغريب الذي نراه يقاتل من أجل تغريب الثقافة وتنحية ما علت به الأمة وسادت قرونا.[٣]

ومن غزواتهم الخبيثة الماكرة في المجال العلمي عامة الالتواءات (التي كثيرا ما يلجأون إليها إساءة تأويل النص-عمدا-لاستخراج دلالات لا يحتملها النص بحال؛ أو إضافة كلمات أو حذف كلمات تجعل النص يؤدي معنىٰ مزورا لا يمت إلىٰ

(١) الغزو الفكري والتيارات المعادية للإسلام/ ١١٠.

(٢) السابق/ ١١٠.

(٣) ينظر: كيف نكتب تاريخنا الإسلامي/ ١٨/ دار الشروف/ ط١-١٤١٢ه- ١٩٩٢م

الأصل بصلة ...)[1]، ولا ريب أن تأثيرها كبير حتىٰ وإن علم المتلقي بخبث كذباتهم العلمية، وها أنت الواجد طوفان التشكيك في التراث والجهاد غير المقدس في البحث عن الأخطاء والعثرات وتوهموا ويوهمون غيرهم أنهم يقدمون للجيل صنيعا حسنا.

في متحف المومياءات الفرعونية مكتوب علىٰ لوحة التعريف بمومياء فرعون (مات في ظروف غامضة) وهذا لعمري ظلم لثقافة الأمة وتعد علىٰ وسيلة من أهم وسائل الدعوة القرآنية إلىٰ الله -جل جلاله-فقد علمنا البيان القرآني الكريم أن الله تعالىٰ نجا بدن فرعون موسىٰ-عليه السلام- ليكون آية للأجيال من بعده، قال جل وعلا: ﴿فَٱلۡيَوۡمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنۡ خَلۡفَكَ ءَايَةٗۚ وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنۡ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ٩٢﴾ [سورة يونس: ٩٢]

وهذه الآية الكريمة كفيلة إذا ترجمت إلىٰ أهم وأشهر لغات العالم أن تكون سبيلا لهداية آلاف السائحين، ولكن القيمين علىٰ ثقافة الأمة طغت عليهم رياح التغريب، وعمدوا إلىٰ التجهيل والتزييف، ولعل هذا سر عدم الاهتمام بفرعون موسىٰ والتعريف به وبقصته واتخاذه عبرة للظالمين المفسدين في الأرض!

موقف الأزهر الشريف من الغزو الثقافي:

ظلت المدرسة الأزهرية بمناهجها المعروفة منذ ٥٧٠هـ إلىٰ ١٢٠٠هـ تقريبا، لا يغالبها في هذا الميدان مغالب، ولا ينازعها في ذلك منازع، ثم وقعت بعد ذلك حادثات أحدثت ثقوبا في وجدان الأمة وفكرها عانت منها وما زالت، **وكان أولها:** ظهور ازدواجية التعليم بدءا من عصر (محمد علي باشا المتوفىٰ ١٢٦٥هـ) حيث أحدث في المجتمع نمطا تعليميا تم استيراده مغلفا من بلاد ذات نموذج فكري وحضاري وثقافي مخالف لما عليه المجتمع المسلم.

(١) كيف نكتب تاريخنا الإسلامي/ محمد قطب/ ١٥.

ثانيها: البعثات الطلابية: حيث سارع (محمد علي) بإيفاد طلاب العلم الصغار إلىٰ أوربا لتلقي علومهم وتربيتهم في بيئات متناقضة مع نموذجنا المعرفي والثقافي والأخلاقي، ف(كان الشباب الذي يظهر عليه القدرة علىٰ التفوق في الدارسة يتم إرسالهم في سن الثامنة عشرة أو العشرين إلىٰ أوربا، وكان هؤلاء الشباب في باريس يخضعون لإشراف صوري، بينما في الحقيقة كانوا يعيشون في حرية تامة، وينخرطون في الحياة الأوربية)(١)، ولم يعجب هذا الأمر بحجة أن من بلغ الثمانية عشر وما بعدها يعيشون (فيما بينهم في هذه المدرسة محتفظين إذا أمكن القول بشكل دائم بالمناخ المصري... ففي سن الثامنة عشرة تكون شخصية الشاب قد اكتملت ولا يمكنه الاندماج مع أفكار الآخرين، وبدلا من الانفتاح علىٰ المجتمع والأفكار الجديدة التي يعيشها الغرب نجدهم بشكل تلقائي يسخرون منها وينتقدونها، وعندما يعودون إلىٰ مصر يظلون محتفظين بنفس الأفكار القديمة الرجعية)(٢)، ومن ثم نصح نوبار باشا إبراهيم باشا (أن يغير تماما من النظام القائم... وإنفاق الأموال لإرسال الأطفال من سن التاسعة أو العاشرة لأوربا... ويمكننا أن نرسل اثنين أو ثلاثة من العلماء لإعطاء الأطفال دروسا في اللغة العربية وتعليمهم أصول الدين الإسلامي)(٣)، ومن هنا بدأت ثقافة الأمة التي شكلت وجدانها وفكرها تاريخا ماجدا مبنيا علىٰ عقيدة الإسلام وقيمه ومبادئه تتغير، فبعد ما يزيد عن مائتي سنة أصبحت المجتمعات تعاني من التطرف الفكري من جانب، ومن الإلحاد والفواحش من جانب آخر، وهي حفريات لن تسلم منها المجتمعات المسلمة إلا بالعودة إلىٰ أنوار الوحي الكريم وورود معينه الثقافي والحضاري والصدور عنه برضا وقناعة وعقيدة.

---

(١) مذكرات نوبار باشا/ ٨٣/ دار الشروق-ط١-٢٠٠٩م القاهرة-مصر.

(٢) السابق/ ٨٤.

(٣) السابق/ ٨٤.

ثالثها: الاستعمار: فقد فرض الاستعمار نظمه ومناهجه التعليمية علىٰ جميع المؤسسات التعليمية، ولم يقاومها ويواجه شرها ويصارع مكرها إلا معاهد قليلة علىٰ رأسها المؤسسة الأزهرية الشريفة، فقد حافظ علىٰ مناهجه، وبذل الطاقة في المحافظة علىٰ علوم الشريعة واللغة العربية الخالدة.

وكل قارئ للتاريخ يقف علىٰ قسوة المعركة علىٰ الأزهر ومناهجه وأساتذته وطلابه وزيهم المعروف، (فقد لقي الأزهر من حرب المستعمرين وأذنابهم وأبواقهم والساخرين منه-تقربا إلىٰ العدو الكافر -بنكاتهم ورسوماتهم ومقالاتهم وبحوثهم وكتبهم ودراساتهم -حربا لا هوادة فيها، فضيق المستعمرون وأتباعهم من الحكام عليه وعلىٰ المتخرجين فيه تضييقا لا يزال بعضه باقيا حتىٰ الآن)(١)، واتبعوا في ذلك سبلا شيطانية قصها القرآن الكريم منذ قوم نوح-عليه السلام-كالسخرية من المؤسسة الأزهرية ومنسوبيها واتهام عقليتهم بالتحجر والجمود والسذاجة ومن اللغة العربية-خاصة-ووسموها باللغة المتقعرة، (وكان وما يزال القصد من هذه الحملة هي أن ينعزل الأزهر برجاله وعلومه الحياة، وعن التأثير والإيجابية في المجتمع)(٢)، وإذا نجحت غزوتهم الفكرية علىٰ الأزهر الشريف ورجالاته الكرام فانعزل وانزوىٰ فإن الغاية التي تسعىٰ وراءها الغزوة الفكرية الصليبية أن يتشكك الناس في دينهم وعلومه، وأنه السبب في تراجع الأزهر الشريف وسلبيته، وينسىٰ الناس أن السبب هو الحملة الصليبية الثقافية التي أفسدت المجتمع وعلومه وثقافته(٣).

ولما كانت اللغة العربية هي الحافظة لكتاب ربنا والمحفوظة به، والحاملة لثقافة الأمة الخيرة من جيل إلىٰ جيل، فقد كان لها النصيب الوفير من الغزو الثقافي الأخبث (منذ أن اتسع النفوذ الأجنبي في العالم الإسلامي واجهت اللغة العربية مقاومة بعيدة

---

(١) مذكرات نوبار باشا / ١١١.

(٢) السابق/ ١١١.

(٣) ينظر السابق: ١١١.

الأثر من اللغات الثلاث: الفرنسية والإنجليزية والهولندية. فقد قطع الاستعمار الغربي الطريق علىٰ توسع اللغة بين مسلمي العالم بالعمل علىٰ:

١- نقل كثير من اللغات إلىٰ الحروف اللاتينية وترك الخط العربي وفي مقدمتها اللغة التركية والأندونيسية.

٢- شجع لغة محلية أو أكثر في كل بلد إسلامي غير عربي لتصبح لغات قومية. وهذا طبعا يتم علىٰ حساب اللغة العربية كالأوردية والسنسكريتية والبنغالية في الهند. واللغات المحلية في أفريقيا.)(١)

هذا علىٰ مستوىٰ العالم، أما في كل قطر عربي فقد عمد الغزو الثقافي إلىٰ تشويه اللغة واتهامها بالتقصير والتقعر، وتصدوا لمعاهدها القائمة علىٰ تعليمها علىٰ وجه العموم والأزهر علىٰ وجه الخصوص، فقد حاولوا حرمان الأزاهرة من تعليم اللغة العربية في المدارس العامة، وساندهم في تلك الغزوات الثقافية مَنْ تغرب هواهم ووالوا المستعمر وشمروا ساعدهم لنصرته وتأييد غزواته الصليبية.

ومن أكابر الموالين لهم الدكتور طه حسين الذي أدلىٰ بدلوه في هذه المسألة قائلا: (فالذين يزعمون أننا نتعلم العربية ونعلمها لأنها لغة الدين فحسب، ثم يرتبون علىٰ ذلك ما يرتبون من النتائج العلمية والعملية، إنما يخدعون الناس، ولا ينبغي أن تقوم حياة الأمم علىٰ الخداع، فإن اللغة العربية ليست ملكا لرجال الدين يؤمنون وحدهم بها ويقومون وحدهم من دونها ويتصرفون فيها، ... وإذن من السخف أن يظن أن تعليم اللغة العربية وقف علىٰ الأزهر الشريف والأزهريين وعلىٰ المدارس والمعاهد التي تتصل بينها وبين الأزهر والأزهريين أسباب طوال أو قصار، هذا سخف لأن الأزهر لا يستطيع أن يفرض نفسه علىٰ الذين يتكلمون اللغة العربية، جميعا، وفيهم المسلم وغير المسلم)(٢)

---

(١) حاضر العالم الإسلامي وقضاياه المعاصرة/ ١٨٧.

(٢) مستقبل الثقافة في مصر/ ٢٣٠/ دار المعارف ١٩٤٤م

وخبث المقالة يتكشف في أمور منها:

- **تقليله من شأن من جعل معرفة الدين وفرائضه وأحكامه وأخلاقه هدفا لتعلم العربية**
- **تشويه علماء الإسلام بوسمهم (رجال الدين) وهو تعبير مسيحي يطلق علىٰ رجال الكنيسة، وهو تعبير ذو خلفية كبيرة من الاضطهاد للعلم ولرجاله في أوربا، وكفيل بأن يشوه الصورة الذهنية لعلماء الإسلام الأزاهرة الذين قصدهم به.**
- **اتهام الأزاهرة الكرام بالعمل علىٰ تأجيج الفتنة الطائفية بتدريسهم اللغة العربية للمسلمين وغيرهم، وغرضه تهييج الرأي العام المسيحي ومن ثم إعطاء الفرصة للقائمين علىٰ الأمر لإرضاء المستعمر والتزلف له بتحجيم دور الأزهر وسلب الأعمال التعليمية من خريجيه.**

كما لم تخل الساحة من مثل هذه الروح الخبيثة تجاه الثقافة العربية والإسلامية ومحاربة المؤسسة الأزهرية القائمة عليها والحامية لحرماتها، حتىٰ إن أحدهم وقف في مؤتمر أوربي مدعيا بأن القرن التاسع عشر بدأ والثقافة الإسلامية تدرس بمناهج القرون الوسطىٰ بيد الأزهر فضاقت أفقها، ثم اتسعت في أواسط القرن بسبب حركة الطباعة والترجمة لكتب الغرب، وتنسم المصريون أرواحا جديدة من أدب الغرب وثقافته.(١)

ولا يخفي ما يبدو في مقالته من هوان وتزلف، ولو اعتز بما يملك من ثقافة عريقة ماجدة، ولغة واسعة متجددة لرفعت مكانته وصدقت قولة الحق علىٰ لسانه، ولكنه أخلد إلىٰ الأرض، فحقر المعظم، واستبدل الأدنىٰ بالذي هو خير وأعلىٰ.

كما تعرضت اللغة الفصحىٰ إلىٰ غزوة ثقافية شعواء تطورت إلىٰ العمل علىٰ استعلاء العامية عليها، وإحياء اللهجات المحلية ودراستها حتىٰ وصل الأمر إلىٰ (أن

---

(١) بتصرف من/ الثقافة الإسلامية والحياة المعاصرة/ محمد خلف الله/ ٥٤٠/ مؤسسة فرانكين-القاهرة ١٩٦٢م

ينادي بها ويؤيدها بعض أعضاء مجمع اللغة العربية-الذي من أبرز وظائفه المحافظة علىٰ الفصحىٰ وتقريبها للناس)[1]، وهذا خطر كبير علىٰ هوية الأمة وثقافتها، فالفصحىٰ هي جوهر الهوية الإسلامية وتراثها الثقافي الوفير، وهي لغة القرآن الكريم والسنة النبوية، ولغة العلوم والمعرفة، ولغة الأدب والشعر، وبتنحيتها تخريب لتراث الأمة وبلاغتها وتدمير لحضارتها، وتجهيل يعقبه سقوط في هاوية الضياع والانكسار.

غزوات فكرية وثقافية على المناهج البلاغية:

وانتقلت الغزوات الثقافية من مجال التعليم ثم اللغة ومن يحافظ عليها إلىٰ علومها بصفة عامة وإلىٰ البلاغة بصفة خاصة، فقد نالت الحظ الأكبر والأخبث من هذه الغزوات الثقافية الغربية، وهذا ما يدعونا إلىٰ التأكيد علىٰ أن علوم البلاغة من أهم علوم القرآن الكريم، فمنذ نشأتها لم تكن بعيدة عن هذا البيان الكريم، بل نشأت في ظلاله، وتعمقت مناهجها وتعملقت في مدرسة إعجازه الكريم.

ومن هذا النبع الصافي أصبحت البلاغة العربية علما تربويا إصلاحيا، غايته امتلاك مهارة حسن الإصغاء إلىٰ البيانين الكريمين والفهم عنهما، والامتثال لأمرهما، والانتهاء عما نهيا عنه، ومن تناول منها درسا ولم يشعر بتغيير في نفسه فله أن يتدارك أمره، وأن يبذل جهده لينال بركة هذا العلم الشريف. فوظيفة البلاغة العربية منذ حبوها إلىٰ تمامها وكمال فروعها وظيفة إسلامية عظيمة القدر، فهي إذن من العلوم العربية الإسلامية الخاصة، ومثاقفتها خاصة، وتناولها بنائيا أو تحليليا يجب أن يكون تناولا خاصا.

وإن همهمة اللسان ولقلقته لا قيمة لها بلاغيا، وإنما تكون للكلام قيمة بقدر بيانه عما يجري في النفس، والذي يجري في النفس معان وخواطر منسولة من ثقافة الأمة

(١) الغزو الفكري والتيارات المعادية للإسلام/ ١١٣.

وخيريتها، فهنا تكون البلاغة وتكون القيمة ويكون علو الكلام وارتفاعه، فالبلاغة تنتقل من الحلق إلىٰ القلب والعقل، وتلتقط منهما الأسرار والخبايا والخفايا، فهذا أصل البلاغة ورأس النقد ومناط الإعجاز، وهنا أقرر قاعدة رئيسة أن أي اعتداء علىٰ اللغة الفصحىٰ هو اعتداء علىٰ العلوم البلاغية وصد عنها.

ولا يجب أن يخفىٰ علىٰ أحد أن بعض العلوم من الفكر المشترك بين الحضارات، ولا يرتبط بفكر غربي ولا شرقي، ولا ينتمي لحضارة دون أخرىٰ، ومنها ما هو نتاج ثقافة خاصة، وعقيدة معينة، نشأ في ظلالها وتشبع بسماتها، والتمييز بينهما (تحكمه وتحدده معايير موضوعية، لا تدع مجالا للبس أو الغموض أو الاعتباط .. فكل العلوم التي موضوعها الطبيعة وظواهرها والمادة وخصائصها، هي من قبيل الفكر الذي هو مشترك إنساني عام، وذلك لأن مناهجها تتميز بالحياد العلمي، ولأن التجربة الملموسة بالحواس المادية هي السبيل لاكتشاف حقائق هذه العلوم ....، ومن ثم فهي لا تتغاير بتغاير القوميات والحضارات، بل هي واحدة علىٰ المستوىٰ الإنساني)[(١)]، ولا يكون التمايز إلا في المقاصد المرادة من هذه العلوم كالرياضيات والكيمياء والفيزياء وأخيرا التكنولوجيا الحديثة كالذكاء الصناعي المستغل في آلات القتل والتخريب بينما تستطيع الأمة الخيرة إفادة البشرية والارتقاء بها إذا ملكت هذه التكنولوجيا الذكية، وهذا هو الفرق بين حضارة وحضارة وثقافة وثقافة.

والبلاغة العربية التي نشأت في ظلال القرآن الكريم وترعرعت في ميدان إعجازه، من العلوم الحضارية (التي تتمايز بتمايز الحضارات، فهو ذلك الذي تكون "النفس الإنسانية" موضوعا لعلومه وفنونه وآدابه)[(٢)]، ومن ثم فإن هذا الصنف من العلوم

(١) الغزو الفكري/ ١٧، ١٨.

(٢)الغزو الفكري / ٢٠

مرتبط ثقافيا بالبيئة والمعتقد والتاريخ والأرض، وهي علوم تستكشف جوانب من الحياة الإنسانية بدءا من الدين واللغة والتاريخ والفنون المتنوعة، وهي ليست علوما ثابتة كلها، فلها أصول ترتكز عليها، ولها فروع تتأثر بشكل كبير بالتطور الإنساني والارتقاء الثقافي، فالعقائد ومجموعة القيم والأخلاق ثابتة، وأما اللغة وبلاغتها المعبرة فقابلة للتطور والارتقاء أو الجمود وعدم مسايرة المعاصرة، ووراء كل ذلك أسباب مجتمعية أو ثقافية أو سياسية أو اقتصادية.

ولا غرابة إذن أن يجد المتلقي للعلوم الطبيعية المادية ارتياحا وانبهارا بما يجده عند الغرب من تقدم ورقي في هذه العلوم وتلك المجالات، وإنما تكون الغرابة للمثقف أو الباحث حينما يطالع ما عندهم من مذاهب فلسفية أو نقدية أو نظريات في العلوم الإنسانية؛ لما فيها من انحراف عقدي وتعصب أعمىٰ للباطل وعري وسفور وانحلال أخلاقي، واعتماد أصولها علىٰ الخرافات التي ترفضها الفطرة السوية، فضلا عن الإسلام القائم علىٰ التوحيد والحق والحقائق التي لا تقبل الشك والارتياب، فلا ريب ألا يجد المسلم تلك الألفة والأريحية التي يجدها المتخصص في العلوم الطبيعية، (لأنه أمام هذه الفلسفات والعلوم الإنسانية والفنون والآداب، يجد نفسه بإزاء "خصوصية حضارية غربية"، تتميز عن الفكر الموضوعي الذي هو "مشترك إنساني عام")[1]، ومن عجب أن ترىٰ بعض بني جلدتنا لا يكتفي بجعل هذه الثقافة الغربية المنحلة قبلة له، وإنما تراه يعجب من نفور علمائنا ومثقفينا منها!

وهذا ما تراه جليا في ميدان البلاغة العربية، فلكل قوم لغة، ولكل لغة علومها، وأخص علوم كل لغة بلاغتها، وما دامت اللغات مختلفة فإن خصوصيتها البلاغية والنقدية متباينة أيضا، ومن يطالع تلك اللغات أو بعضا منها سيقف علىٰ حقيقة لا

(١) الغزو الفكري/ ٢٢.

ينكرها إلا ذو قرنين، وهي أن لكل لسان نصيبا من علم البلاغة، وأن هذا النصيب يتفاوت من لسان إلىٰ لسان آخر بقدر ما، وأن اللسان العربي نال النصيب الأوفر، وذلك مرتبط بتلك اللغة ذات السعة والهيمنة والتي بلغت أوجها في العصر الجاهلي تمهيدا لنزول البيان الكريم الذي جعل من بلاغته معجزة مهيمنة علىٰ بلاغة العرب، ومن ثم كانت بلاغة العرب مهيمنة علىٰ كل بلاغات الدنيا تناسقا مع هيمنة البيان الكريم علىٰ الكتاب كله.

وإن من السخافة الحضارية والمراهقة الثقافية أن نستدعي بلاغات الغرب لنجدد البلاغة المهيمنة علىٰ بلاغات جميع الألسنة، حيث لا يطلب من الأدنىٰ أن يرتقي بالأعلىٰ، بل الأسخف من ذلك والأخبث أن يطالب البعض بطمس ثقافة الأمة البلاغية وإحلال نظريات أهل المجون والعري مكانها، ويتهمون المدافعين عن تراث الأمة المرتبط بعقيدتها والمعني ببيان الوحي الكريم بالجمود والرجعية والتخلف، وما السبيل إلىٰ الارتقاء بهذا العلم الشريف والارتقاء به إلا بالرجوع إلىٰ النبع الصافي الذي صدر عنه، وهو الوحي المجيد، والنتاج الإنساني العربي البديع.

ولماذا لا يبذل الصليبيون والصهاينة ومن خدعوا بهم وبثقافتهم غاية الجهد ماليا وفكريا وثقافيا للتقليل من شأن التراث العربي بصفة عامة والبلاغي بصفة خاصة واتهامه بالجمود ثم بالموت وإبداله ببلاغات الغربيين! وهي روح البيان العربي بصفة عامة والبيان القرآني الكريم بصفة خاصة، وقد واجهتهم البلاغة بدقائقها في تحليل أول ذكر لهم في البيان الكريم في سورة الفاتحة، في قوله تعالىٰ: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧﴾ [سورة الفاتحة:٦-٧].

وواجهتهم في قوله تعالىٰ: ﴿وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغۡلُولَةٌۚ غُلَّتۡ أَيۡدِيهِمۡ وَلُعِنُواْ بِمَا قَالُواْۘ بَلۡ يَدَاهُ مَبۡسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيۡفَ يَشَآءُۚ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرٗا مِّنۡهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن

رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ۚ وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ كُلَّمَآ أَوْقَدُوا۟ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ ۚ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا ۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٤﴾

[سورة المائدة: ٦٤]

وفي قوله تعالىٰ: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾ تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِى ٱلْعَذَابِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿٨٠﴾ وَلَوْ كَانُوا۟ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِىِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨١﴾ * لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ ۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾ [سورة المائدة: ٧٨-٨٢].

وفي قوله تعالىٰ: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا ۚ بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥﴾ [سورة الجمعة: ٥]

وهذا فيض مما حفل به البيان الكريم، والقيمة البلاغة العربية الإصلاحية التربوية تكمن في تمكيننا من الكشف عن دقائق نظم البيان الكريم وإبراز أسراره الكاشفة عن خراب نفوسهم، وفساد تصوراتهم، وكفر قلوبهم، وارتكابهم الموبقات، والتحذير من خطورتهم علىٰ المجتمعات الإنسانية بصفة عامة وعلىٰ المجتمعات المسلمة بصفة خاصة، فهي -إذن- عقبة كؤود في مواجهتهم، ولا يمكن تجاوزها في مسار تغريب ثقافة الأمة وتدمير هويتها - إلا بتقليل شأن هذا العلم الشريف، وتمييعه في

المناهج التعليمية، وتنحيته من المبادرات والبرامج الثقافية، وهذا سر تسليط أسهم الاتهامات إليه من كل حدب وصوب.

وجدير أن أشير إلىٰ أن للبلاغة العربية مناهج ثلاثة: منهج الجاحظ القائم علىٰ البيان والتبيين للنصوص، ثم ما فيه من لفت إلىٰ بعض النقدات لتفتح للمتلقي آفاقا أدق وأوسع، ثم المنهج الجرجاني القائم علىٰ التحليل والتعليل والتي أعلت من شأن التذوق للنصوص والوقوف علىٰ جمالياتها، ثم المنهجية السكاكية التي أحاطت خبرا بالمنهجين السابقين، واختطت طريقا بديعا قائما علىٰ التقسيم والتقعيد.

وهي مناهج تتكامل ولا تتنافر، وتتواصل ولا تتقاطع، حيث إنه من السهل أن يتمكن الدارس من الجمع بينها في مدرسة متنوعة السبل، يانعة الثمر، فليست بلاغتنا قائمة علىٰ منهج واحد يضيق واسعا، وإنما هي ثلاثة تستوعب جميع النصوص وجميع الأفكار وجميع الأغراض، وإنه لمن القول الفصل أن في أسفار المفسرين علىٰ مختلف مشاربهم دررا بلاغية كفيلة بأن تعيد للبلاغة حيويتها، وأن تلبسها ثوبا قشيبا يسر الناظرين. وليس هذا بمانع أن تتناول هذه المناهج بالدرس والنقد البناء للوصول إلىٰ الكمال البلاغي الإنساني وتطورها ورقيها.

لقد تعرضت البلاغة العربية لاتهامات غير دقيقة: منها دعوىٰ طه حسين، وجرأته في اتهام الإمام عبد القاهر الجرجاني بتأثره بغير العرب، فما هو إلا فيلسوف يجيد شرح أرسطو والتعليق عليه(١)، (ولم لا يهاجم الإمام عبد القاهر الذي أسس هذا العلم الشريف، ووصل بنظرية النظم إلىٰ مكانة سامية أضحت موردا لكل النظريات

(١) ينظر البلاغة المفترىٰ عليها بين الأصالة والتبعية/ د/ فضل حسن عباس/ ١٩٦/ دار الفرقان/ ط٢/ ١٤٢٠ه-١٩٩٩م.

الحديثة التي اتكأت علىٰ زاوية من زواياها، واستمدت من معينها)[١]، والمستهدف من وراء كل ذلك إقامة دعوىٰ باطلة بأن البلاغة العربية الإسلامية ربت ونمت في أحضان التراث اليوناني، وأنها ربيبة البلاغة اليونانية، وأن أرسطو هو مؤسس البلاغة يونانيا وعربيا، وهي دعوة كاشفة عن هوىٰ غربي سيطر علىٰ تلك العقول التي أبت إلا أن تخضع للغزو الفكري، وأن تكون معول هدم لثقافة الأمة وعلومها.

ومنها ما وجه للبلاغة بصفة عامة وللمنهج السكاكي بصفة خاصة من اتهامات بجمودها وتوقف الإبداع في مجالاتها، ووأد الفكر البلاغي القائم علىٰ التذوق الأدبي الراقي، فهذا الدكتور/ بدوي طبانة يقول: (الواقع أنه لم يفسد البلاغة العربية أو البيان العربي مثل تمحيص السكاكي وتهذيبه، وترتيبه الذي مجده به ابن خلدون...ولسنا نعرف السحر العجيب الذي سحر العلماء بكتاب السكاكي، فجعلهم ينسون أنفسهم، وينكرون ملكاتهم، ليسيروا في ركاب السكاكي وفي فلك كتابه، فجعلوه القطب الذي يدورون حوله، والغاية التي يبممونها)[٢]، وعلىٰ منواله نسج الدكتور محمد عبد المنعم خفاجي فاتهم السكاكي بالإمعان في الغوص بقواعد البلاغة إلىٰ أعماق المنطقة والفلسفة[٣]، وأما الشيخ أمين الخولي فنصح بتنحية البلاغة التعليمية وهجرها في دراسة البلاغة لكون أربابها يجمعون بين عجمة اللسان وفلسفة

---

(١) البلاغة العربية والتداولية الغربية بين الثابت والمتغير-دراسة بلاغية/ للباحث/ ١٦٧٦، و١٦٧٧/ مجلة كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات بالإسكندرية/ الجزء الثاني/ وينظر البلاغة المفترىٰ عليها/ ١٩٧.

(٢) البيان العربي/ ٢٠٠/ مكتبة الإنجلو المصرية-ط٢-١٩٨٥م

(٣) ينظر/ مقدمة تحقيق الدكتور محمد عبد المنعم خفاجي لكتاب الإيضاح للخطيب القزويني/ ٦/ ١٩٢/ دار الجيل بيروت-١٩٩٣م

المنهج(١)، ووصف الدكتور/ شوقي ضيف صنيع السكاكي بالغابة أو الدغل الملتف، ولا يمكن سلوكه إلا بمصابيح من المنطق ومباحث المتكلمين والفلاسفة(٢).

لقد تداعوا علىٰ اتهام المدرسة السكاكية بأنها سبب جمود البلاغة وتوقف مدها الذوقي المعهود في المدرسة الأدبية الجاحظية ومن دار في فلكه، والمدرسة الذوقية التحليلية التعليلية، والحق أن الرجل جاء بما لم يأت به من سبق، فكان صنيعه طفرة تجديدية غير معهودة، مما جعل محبي هذا العلم وطالبيه يرحبون به ويلتفون حوله، ولو كان ثمة مؤاخذة فهي توجه إلىٰ من حصروا أنفسهم في ميادين هذه المدرسة ولم يتجاوزوها إلىٰ المدارس الأخرىٰ فانحسرت إبداعاتهم.

لقد عرفت الأمة في سالف ماضيها التلمذة علىٰ يد الأمم الأخرىٰ فيما هو مشترك عام بين الإنسانية، ولم يعابوا علىٰ ذلك، فانفتحوا علىٰ الثقافة الهندية وأخذوا عنهم علم الحساب والفلك، وانفتحوا علىٰ الثقافة الرومانية وأخذوا عنهم تدوين الدواوين، وانفتحوا علىٰ الفرس وأفادوا من ثقافتهم في الفنون الإدارية، ولم يتأثروا بفلسفة الهنود ولا قوانين الرومان، ولا مذاهب الفرس، وكانت هذه الروح الوثابة المعتزة بخصوصيات حضارتها وثقافتها سببا في نشأة أعظم حضارة في تاريخ البشرية، ولم يكن هذا شأن أمتنا فحسب، بل إنك لتجد الغرب تتلمذ علىٰ أيدي المسلمين في مجالات العلوم الطبيعية، ولم يلتفتوا إلىٰ خصوصيات حضارتهم، فابن رشد تلميذ أرسطو تتلمذوا عليه، وابن رشد صاحب المذهب الفقهي لم يلتفتوا له، ولا يعابوا كما لم يعب أجدادنا.

---

(١) مناهج تجديد في النحو والبلاغة والتفسير والأدب/ ١٧٥/ دار المعرفة/ ط١/ ١٩٦١م

(٢) البلاغة تطور وتاريخ/ ٢٩٦/ دار المعارف/ ط٢.

لكن العصر الحديث جاء بالعجب الذي لم يفعله سلفنا ولم تقع فيه أوربا التي عاشت عصور الظلام، فأقبل الذين تغربت عقولهم وقلوبهم علىٰ خصوصيات الحضارة والثقافة الغربية واتخذوا أربابها أئمة، فتجد أحدهم يتناول فكرهم ووجهات نظرهم قانونا لا يتجاوز، وبرهانا لا يناقش، ويذكره بتعزز عجيب، فإذا ما أمال بجانبه إلىٰ المناهج البلاغية العربية فإنه لا يكاد يبين.

إن المنصف يدعو إلىٰ عدم التقوقع والانزواء بعيدا عن الحضارات وثقافات الآخرين، حيث يمكننا الإفادة من المدراس الغربية في المقارنات الكاشفة عن أوجه الاتفاق أو الاختلاف بينها وبين مدارسنا البلاغية وما يمكننا الإفادة منه، وفي تكنولوجيا التعليم، وطرق التدريس وحسن التأليف وتقديم هذا التراث البلاغي الملهم في ثوب معاصر، يجمع بين أصالة المنهج ويسر العرض والتحليل، ليكون ذلك أداة جذب لطلاب العربية وجماهير الأمة، ولا يجب أن تبتعد المناهج البلاغية عن رعاية حال المجتمع، لتكون سبيلا إلىٰ هداية الأمة ونهوضها، وتبصيرها بما يحاق لها، لتربية وعي عربي إسلامي عام تتبصر به طريق النهضة والعزة والكرامة. والمرفوض هو الانسياق التام والانحدار الفكري بترك تراث الأمة وتهوينه واستجلاب النظريات الغربية ثم محاولات فرضها علىٰ البيانين الكريمين والبيان الإنساني العربي البديع.

لمحة وريقات:

ونستخلص مما سبق ما يأتي:

أولا: تاريخ الغزو الفكري والثقافي يظهر عدم توقف محاولاته علىٰ فرض معتقده وقيمه وسلوكياته بأسلحة وطرق غير مباشرة علىٰ المجتمع المستهدف تدمير مناعته وتحطيم استقلاليته وتغيير هويته وتراثه، وأهم أسلحته: الإعلام. التعليم. الثقافة

الشعبية من أفلام ومسلسلات وقصص وروايات، ووسائل التواصل. وأخيرا التقنيات الذكية كالذكاء الصناعي وغيره.

ثانيا: الغزو الفكري والثقافي أدىٰ إلىٰ تشويش العقل العربي، وخلق جيل يهوىٰ كل ما يدور في فلك الغرب سلوكا وعادات ولو خالفت أخلاق الإسلام وعادات معتنقيه.

ثالثا: الغزو الثقافي أضعف حركة الفكر العربي المرتبط بالتراث العربي وتحقيره.

رابعا: الغزو الثقافي دمر التعليم العربي الذي يبني الإنسان فكرا ووجدانا، ومن ثم توقفت حركة المشاركة الحضارية المعاصرة.

خامسا: توجه الغزو الثقافي لإضعاف اللغة العربية والتقليل من شأنها في نفوس أبنائها، ونتيجة هذا الغزو تزهيد المجتمعات العربية في لغتهم وعلومها بصفة عامة وبلاغتها بصفة خاصة.

سادسا: محاولة الغزوات الثقافية كثيرا إحلال العامية بديلا للغة الفصحىٰ، وخطورة هذه المحاولات تكمن في أنها تقضي علىٰ الزاد الذي تتوهج به البلاغة العربية، فمادتها التي تزدهر بها هي ما ينتجه الفكر العربي من نصوص بديعة مثيرة للدرس والبحث.

سابعا: لما كانت البلاغة العربية والإسلامية ليست فنا مجردا وإنما هي سلاح فكري أصيل، له دور بار في تعزيز ثقافة الأمة والمحافظة علىٰ خصوصيتها الإسلامية والعربية والأخلاقية والسلوكية، ولقدرتها علىٰ بناء العقل المسلم والعربي وتنمية قدراته النقدية البناءة، وحماية المجتمع من الأفكار الهدامة-فقد وجه إليها العديد من الغزوات الفكرية والثقافية في العصر الحديث، لإضعافها وتنحيتها عن تأثيرها في ثقافة المجتمعات العلمية والعامة.

ولا يقصد من هذا أن تنزوي الدروس البلاغة وتنقطع عن التفاعل والتواصل مع الآخر، فالجمود والتقوقع يميت البلاغة وينحي تأثيرها جانبا. والاتباع والتقليد يعطل ملكة الإحياء والإبداع، وهذا ما أحاول بيانه تحليليا وتطبيقيا في المبحث الآتي، وهذا يتطلب أن تقوم الدراسة علىٰ منهجية مقارنة تبين أوجه الاتفاق والاختلاف بين نظريتين أو فكرتين أو نصين، وما يختلف فيه لا يلزم أن يطوع له التراث العربي والإسلامي، وما يتفق فيه يمكن أن تتحسس خطوات البحث عنه في التراث العربي الثري دون ليٍّ عنق الحقائق العلمية، لتكون تلك الدراسات شجرات طيبة المنبت يانعة الثمر.

المبحث الثاني: البلاغة المقارنة: النظرية والتطبيق

يتكشف لنا مما سبق أن العلاقة بين الفكر الغربي والفكر العربي علاقة تناطح وتعاند وتعاكس، لأن نتاج كل منهما يتخطىٰ الحدود المكانية الخاصة بأصحاب كل فكر، وينتشر ليؤثر في الآخرين، لارتباط كل منهما بثقافة مختلفة عن ثقافة الآخر، فالفكر الإسلامي فكر هداية قد أرسل به النبي-صلىٰ الله عليه وسلم-للعالمين، والفكر الغربي مرتبط بثقافة مسيحية صهيونية تهدف إلىٰ السيطرة علىٰ العالم شرقا بعد سيطرته عليه غربا، ولا نجد مثل هذه العلاقة المتشاكسة مع الفكر الشرقي يابانيا أو صينيا(١).

تضليل عقول الناس أداة من أدوات القهر والسيطرة عليهم، وهي صناعة المتلاعبين بالعقول بوسائل قديمة وحديثة، وفنون خشنة وناعمة(٢)، وأخطر السبل لتحقيق هذا الهدف أن تكون الثقافة هي الطريق إليه، والمتابع لما يكتب ويدرس في كثير من الجامعات والمراكز والمواقع الالكترونية والوسائل الاجتماعية تتملكه غصة لا يكاد يتخلص منها بسبب هذا الشر المستطير الذي لا يقف الآن عند حد ولا خط، فلم يتركوا لنا عقيدة ولا مقدسا إلا وطالبوا ويطلبون ويلحون بخبث تارة، وبترهيب تارة-بفتح هذه الملفات وتركها لكل داعر فاجر يجول فيها ويصول بجهل وباطل ودعارة فكرية وشذوذية ثقافية وأن يأخذها إلىٰ المقصد الذي يتفق مع ثقافة الانحلال والانحراف والفسوق.

واختصت البلاغة العربية بوابل من الاتهامات بالتوقف والجمود ومن ثم فلترم في سلة المهملات، ومما يدمي القلب ويؤلم الوجدان أن أرىٰ حسني النية يتوافدون

---

(١) ينظر/ الغزو الفكري/ ٢٠٧ وما بعدها.

(٢) ينظر/ المتلاعبون بالعقول/ هربرت أ. شيلر/ ٥/ ترجمة/ عبد السلام رضوان/ عالم المعرفة ١٩٧٨م.

علىٰ المترجم الوافد من هذه النظريات الغربية بالدرس ومنحها أوسمة المديح والثناء، ثم يقوم الكثير منهم بمحاولة تطبيق مبادئها علىٰ تراثنا الماجد بصفة عامة، وعلىٰ البيانين الكريمين: قرآنا وسنة بصفة خاصة، فترىٰ جسدا غريبا بلا روح قد جسم علىٰ تراث لا يتسق معها هدفا ولا غاية، فإذا قرأت النص الذي أخضعوه لنظريات الغربيين لا أفهم منه شيئا، وإذا رجعت إلىٰ النص بعيدا عن همهماتهم أجد فيه من الصفاء والأسرار ما يخلب العقل ويأسر الفؤاد ويرقي الروح، ومن خداعهم للقراء كتابة عناوين براقة جوفاء كالبلاغة الجديدة في كتابات فلان، فإذا ما قرأت وجدت وقتك قد ضاع سدىٰ.(١)

وإن الكثير يدعو ليلا ونهارا سرا وجهارا إلىٰ تنحية بلاغتنا وإحلال نظريات غربية مكانها، واصفين الأولىٰ بالقديمة أو الكلاسيكية لتنفير الناس منها، وواصفين الأخرىٰ بالجديدة لتحبيبها إلىٰ المتلقين(٢)، وقد راجت بضاعتهم في كثير من الجامعات

(١) ينظر/ مجلة الشارقة الثقافية/ عدد ٨٤/ أكتوبر ٢٠٢٣م

(٢) في بحث بعنوان (البنىٰ التركيبية ودلالتها في سورة الطور) نشر في (مجلة فصول/ مجلد ١٣/ عدد ٣/ سبتمبر ٢٠٢٤/ ص٧-٢٤) كتب عن الدراسات السابقة ما نصه: (وقد تناولت بعض الدراسات الحديثة سورة (الطور)، واهتم أغلبها بدراسة الجوانب البلاغية وفق المنهج التقليدي القديم) ومن الدراسات التي ذكرت (سياق (أم) في سورة (الطور): دراسة بلاغية تحليلية ٢٠١٣م) و(دلالات الخطاب الإنشائي والخبري في سورة (الطور) ٢٠١٥م) فما سر التقديم لهذه الدراسات بالقول (وفق المنهج التقليدي القديم) غير إيهام القارئ بأن دراسته حديثة معاصرة لا تنتمي للقديم، فإذا نظرت في الدراسة وجدتها عبارة عن (الكشف عن أسرار النظم القرآني، وتحليل الأساليب البارزة في السورة للكشف عن دلالتها البيانية والجمالية، وإبراز دقة بناء الجمل ونظمها) وما الجديد في ذلك، فمنذ الخطوات الأولىٰ في تأسيس علوم البلاغة كان هذا مسطورا في أسفار أئمتنا المؤسسين، فالذي كشف عن نظرية النظم وأفاض في تثويرها وتحبيرها الأمام عبد القاهر الجرجاني (٤٠٠ -٤٧١ه) ثم يأتي من يهيل علىٰ هذا التراث الماجد مسخ ثقافته وهواه النبت في أرض سوء، وليتهم صدقوا وجاءوا بجديد.

والمراكز ووسائل العرض مسموعة ومرئية، وقد حفظ الله الكثير من أبناء جامعة أزهرنا المبارك من الوقوع في هذه الهوة المفسدة للذوق العربي الأصيل.

ومن هنا أرىٰ أنه يلزم الباحث والدارس لهذه النظريات أن يتسلح أولا بالتمكن من علوم البلاغة والقدرة علىٰ تطبيقها علىٰ التراث العربي بثرائه ووفرته، ثم يدرس النظرية الغربية المرادة من مصادر موثوقة، فبعض المترجمين لا يحسنون عرض النظرية وتحبير ما أريد منها، فقد فهم الكثيرون من نظرية التماسك النصي، أن المراد تماسك النص كله، وأصحاب النظرية لم يمثلوا إلا بجمل وليس بنصوص كما أوهمنا المترجمون، مما جعل الكثير ممن يتصيدون أخطاء لتراثنا ويفتشون عن نواقص أو فراغات في بنائه المشيد-يتهمون البلاغة العربية بإهمال الترابط النصي، لأنها صبت اهتمامها علىٰ تماسك الجملة فحسب، وهو اتهام خال من الحقيقة، وكل طلاب هذا العلم الشريف فضلا عن أساتذته يدركون خطأ هذا القول ومجانبته الصواب.

وبعد تمكن الباحث من علوم البلاغة وتراثها ثم دراسته النظرية المختارة يمكنه دراستهما دراسة مقارنة في الجانب المستهدف، وهذا المنهج ليس بجديد، فقد استلهمه المسلمون من بيان الوحي الكريم الذي أقام المقارنات كأسلوب بلاغي تربوي، ووسيلة بيانية لإيصال الفكرة، وتوضيح المفهوم، كما بين جلال الإله الحق والآلهة الباطلة، وكما بين أهل الإيمان وأهل الكفر، وكما بين أصحاب الجنة ونعيمهم وأصحاب النار وعذابهم، وكما بين الخير والشر، وبين العالم والجاهل، ونقل إلينا مقارنة إبليس بينه وبين آدم عليه السلام، وأصبح العقل المسلم مؤسسا علىٰ هذه المنهجية القرآنية، من ذلك:

قوله تعالىٰ: ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ

تَسْتَوِي ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ ۗ أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ ﴿١٦﴾﴾ [سورة الرعد:١٦] .

وقوله تعالىٰ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ ﴿١٩﴾ إِنِّى ظَنَنتُ أَنِّى مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ ﴿٢٠﴾ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٢١﴾ فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٢٢﴾ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿٢٣﴾ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾ وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾ يَٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنِّى مَالِيَهْ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّى سُلْطَٰنِيَهْ ﴿٢٩﴾ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾ ثُمَّ فِى سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَٱسْلُكُوهُ ﴿٣٢﴾ إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣٤﴾ فَلَيْسَ لَهُ ٱلْيَوْمَ هَٰهُنَا حَمِيمٌ ﴿٣٥﴾ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ﴿٣٦﴾ لَّا يَأْكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلْخَٰطِـُٔونَ ﴿٣٧﴾﴾ [سورة الحاقة:١٩-٣٧] . .

وقوله تعالىٰ: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ۖ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾﴾ [سورة الأعراف:١٢]

وكثرت المقارنات في الحديث الشريف، كقوله صلىٰ الله عليه وسلم: (مثَلُ الجليسِ الصالحِ ومثلُ جليسِ السوءِ كحاملِ المسكِ ونافخِ الكيرِ، فحاملُ المسكِ إما أن تبتاعَ منه، وإما أن تجدَ منه ريحًا طيبةً، ونافخُ الكيرِ إما أن يُحرِقَ ثيابَك، وإما أن تجدَ منه ريحًا خبيثةً)(١)، وقوله: (إياكم والكذبَ ، فإن الكذبَ يهدي إلىٰ الفجورِ ، والفجورُ يهدي إلىٰ النارِ ، وإن الرجلَ ليكذبَ فيتحرَّىٰ الكذبَ حتىٰ يُكتبَ عندَ اللهِ

(١) ابن حبان/ ٥٦١.

كذابًا ، وعليكم بالصدقِ فإن الصدقَ يهدي إلىٰ البرِّ ، وإنَّ البرَّ يهدي إلىٰ الجنةِ ، وإن الرجلَ ليصدقَ ويتحرىٰ الصدقَ حتىٰ يُكتبَ عندَ اللهِ صديقًا)(١)

والشعر العربي ملآن بالمقارنات التي يقصد بها التوضيح أو التعبير عن المشاعر والانفعالات، فهذا أبو العلاء المعري يقول(٢):

غَيْـرُ مُجْـدٍ فِـي مِلَّتِـي وَاعْتِقَـادِي ... نَـوْحُ بَـاكٍ وَلَا تَـرَنُّمُ شَـادِ

وَشَـبِيهٌ صَـوْتُ النَّعِـيِّ إِذَا قِيـ ... ـسَ بِ صَوْتِ الْبَشِـيرِ فِـي كُـلِّ نَـادِ

أَبَكَـتْ تِلْكُـمُ الْحَمَامَـةُ أَمْ غَنَّـ ... ـتْ عَلَـىٰ فَـرْعِ غُ ْصنِهَا الْمَيَّـادِ

لقد تواجدت المقارنات في العلوم العربية والإسلامية بصورة وفيرة وعديدة؛ لأغراض كثيرة أعلاها المجال التربوي، لما تتميز به المقارنة من التوضيح والبيان، وهو ما تربت عليه الأمة منذ مئات السنين.

المقارنة في التراث العربي والبلاغي:

المقارنة في اللغة تدل علىٰ المقارنة بين شيئين، يقول ابن فارس: (الْقَافُ وَالرَّاءُ وَالنُّونُ أَصْلَانِ صَحِيحَانِ، أَحَدُهُمَا يَدُلُّ عَلَىٰ جَمْعِ شَيْءٍ إِلَىٰ شَيْءٍ، وَالْآخَرُ شَيْءٌ يَنْتَأُ بِقُوَّةٍ وَشِدَّةٍ. فَالْأَوَّلُ: قَارَنْتُ بَيْنَ الشَّيْئَيْنِ. وَالْقِرَانُ: الْحَبَلُ يُقْرَنُ بِهِ شَيْئَانِ. وَالْقَرَنُ: الْحَبْلُ أَيْضًا)(٣)، ويقول ابن منظور: (وقابله: حاذاه بوجهه)(٤) فدلالتها واضحة علىٰ جمع شيئين أو أكثر ودراستهما للوقوف علىٰ أوجه الشبه والاختلاف.

---

(١) البخاري/ ٦٠٩٤.

(٢)ديوان سقط الزند/ أبو العلاء المعري/ ١١١ وما بعدها/ المجموعة الكاملة/ مكتبة دار الحياة –بيروت– ١٩٦٥م

(٣) مقاييس اللغة/ مادة/ قرن/ ٥/ ٧٦/ عبد السلام محمد هارون/ دار الفكر/ ١٣٩٩هـ – ١٩٧٩م.

(٤) لسان العرب/ ابن منظور/ مادة/ قبل/ دار صادر

وللمقارنة حضور في أسفار منشئي علوم العربية، فهذا هو الجاحظ –رغم تصديه للشعوبية وتفضيله لآداب العرب– يقارن بين النصوص الإبداعية للأمم المختلفة، ويقارن بين بلاغات الثقافات المختلفة، ففي مجال المقارنة بين النصوص يقول: (وجملة القول أنا لا نعرف الخطب إلا للعرب والفرس. فأما الهند فإنما لهم معان مدونة، وكتب مخلدة، لا تضاف إلىٰ رجل معروف، ولا إلىٰ عالم موصوف، وإنما هي كتب متوارثة، وآداب علىٰ وجه الدهر سائرة مذكورة. ولليونانيين فلسفة وصناعة منطق، وكان صاحب المنطق نفسه بكيّ اللسان، غير موصوف بالبيان، مع علمه بتمييز الكلام وتفصيله ومعانيه، وبخصائصه. وهم يزعمون أن جالينوس كان أنطق الناس، ولم يذكروه بالخطابة، ولا بهذا الجنس من البلاغة)(١)، تناول ما يتميز به أصحاب الحضارات والثقافات الكبرىٰ: العرب، الفرس، الهنود، اليونانيين، وبهذا يكون الجاحظ قد فتح الباب للمقارنة بين النصوص العربية وغيرها، وكان علي أرباب البلاغة بصفة خاصة أن يلجوا هذا الباب دون رهبة، فلكل ثقافة نصوص كاشفة عن طرق التفكير، وعن حضارة القوم وسلوكياتهم الحياتية، وبذلك يتحقق قوله تعالىٰ: ﴿وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾﴾ [سورة الحجرات:١٣].

وبما أنه قارن فقد ذكر ميزة كل قوم في حالة الإبداع بين الفطرة الإبداعية، والحالة التي تبلغ بالكسب والخبرة، فيقول: (وفي الفرس خطباء، إلا أن كل كلام للفرس، وكل معنىٰ للعجم، فإنما هو عن طول فكرة وعن اجتهاد رأي، وطول خلوة، وعن مشاورة ومعاونة، وعن طول التفكر ودراسة الكتب، وحكاية الثاني علم الأول، وزيادة الثالث في علم الثاني، حتىٰ اجتمعت ثمار تلك الفكر عند آخرهم. وكلّ شيء للعرب

(١) البيان والتبيين/ الجاحظ/ ٣/ ٢٠/ دار ومكتبة الهلال، بيروت– ١٤٢٣ هـ

فإنما هو بديهة وارتجال، وكأنه إلهام، وليست هناك معاناة ولا مكابدة، ولا إجالة فكر ولا استعانة، وإنما هو أن يصرف وهمه إلىٰ الكلام، وإلىٰ رجز بوم الخصام، أو حين يمتح علىٰ رأس بئر، أو يحدو ببعير، أو عند المقارعة أو المناقلة، أو عند صراع أو في حرب، فما هو إلا أن يصرف وهمه إلىٰ جملة المذهب، وإلىٰ العمود الذي إليه يقصد، فتأتيه المعاني إرسالا، وتنثال الألفاظ انثيالا، ثم لا يقيّده علىٰ نفسه، ولا يدرسه أحدا من ولده. وكانوا أميين لا يكتبون، ومطبوعين لا يتكلفون، وكان الكلام الجيد عندهم أظهر وأكثر، وهم عليه أقدر، وله أقهر، وكل واحد في نفسه أنطق، ومكانه من البيان أرفع، وخطباؤهم للكلام أوجد، والكلام عليهم أسهل، وهو عليهم أيسر من أن يفتقروا إلىٰ تحفظ، ويحتاجوا إلىٰ تدارس، وليس هم كمن حفظ علم غيره، واحتذىٰ علىٰ كلام من كان قبله، فلم يحفظوا إلا ما علق بقلوبهم، والتحم بصدورهم، واتصل بعقولهم، من غير تكلّف ولا قصد، ولا تحفظ ولا طلب)[1]، وهذا ليس تحيزا للعرب كما ادعي عليه، واتهم به، فالمجتمع العربي بلغ مبلغا في الكمال الأدبي الإنساني والإبداع البلاغي ما لم يبلغه أي مجتمع عربي بعد ذلك، ولم يصل إليه غيرهم من الأمم الأخرىٰ من قبل ومن بعد، وتلك حكمة قدرية لتتحقق معجزة القرآن البيانية التي استسلم لها العرب وانقادوا، ولا يمكن أن يكون ذلك إلا ببلوغهم ربوة دونها ربوات الأمم الأخرىٰ.

وأما عن المقارنات بين النظر البلاغي فأجد للجاحظ تحريرا لتعريف الأمم الأخرىٰ لبلاغتهم، فيقول: (قيل للفارسي: ما البلاغة؟ قال: معرفة الفصل من الوصل. وقيل لليوناني: ما البلاغة؟ قال: تصحيح الأقسام، واختيار الكلام. وقيل للرومي: ما البلاغة؟ قال: حسن الاقتضاب عند البداهة، والغزارة يوم الإطالة. وقيل للهندي: ما

(١) البيان والتبيين / الجاحظ/ ٣/ ٢٠/ .

البلاغة؟ قال: وضوح الدلالة، وانتهاز الفرصة، وحسن الإشارة. وقال بعض أهل الهند: جماع البلاغة البصر بالحجة، والمعرفة بمواضع الفرصة. ثم قال: ومن البصر بالحجة، والمعرفة بمواضع الفرصة، أن تدع الافصاح بها إلىٰ الكناية عنها، إذا كان الإفصاح أوعر طريقة، وربما كان الإضراب عنها صفحا أبلغ في الدرك، وأحق بالظفر)(١)

ولم يكتف الجاحظ بهذه المقارنة بين بلاغات ذوي الثقافات المختلفة، وإنما أرشد إلىٰ أن طريق بلوغ منزلة البلاغة العالية أن يطالع ثقافات هذه الأمم فيقول: (ومن أحبّ أن يبلغ في صناعة البلاغة، ويعرف الغريب، ويتبحر في اللغة، فليقرأ كتاب كاروند. ومن احتاج إلىٰ العقل والأدب، والعلم بالمراتب والعبر والمثلات، والألفاظ الكريمة، والمعاني الشريفة، فلينظر في سير الملوك. فهذه الفرس ورسائلها وخطبها والفاظها، ومعانيها. وهذه يونان ورسائلها وخطبها، وعللها وحكمها، وهذه كتبها في المنطق التي قد جعلتها الحكماء بها تعرف السقم من الصحة، والخطأ من الصواب، وهذه كتب الهند في حكمها وأسرارها، وسيرها وعللها، فمن قرأ هذه الكتب، وعرف نور تلك العقول، وغرائب تلك الحكم، عرف أين البيان والبلاغة، وأين تكاملت تلك الصناعة)(٢)، وإن تراثا به هذه الإرشادات وتثوير هذه التوجيهات لكفيل بأن يصنع بلاغة مقارنة تزيد بلاغتنا توهجا وتلبسها ثوبا معاصرا يليق بهذا العلم الشريف.

وأبو هلال العسكري يزيد قول الجاحظ بيانا بقوله: (إن البلاغة ليست مقصورة علىٰ أمة دون أمة ولا علىٰ ملك دون سوقه ولا علىٰ لسان دون لسان بل هي مقسومة علىٰ أكثر الألسنة فهم فيها مشتركون وهي موجودة في كلام اليونانية وكلام العجم

(١) البيان والتبيين/ ١/ ٩٢.

(٢) السابق/ ٣/ ١٠.

وكلام الهند وغيرهم ولكنها في العرب أكثر لكثرة تصرفه في النثر والنظم والخطب والكتب والسجع والمزدوج والرجز وهم أيضا متفاوتون فيها فقد يكون العبد بليغا ولا يكون سيده وتكون الأمة بليغة ولا تكون ربتها فالبلاغة قد تكون في أعراب البادية دون ملوكها وقد يحسنها الصبي والمرأة)(١)، ثم ساق أمثلة علىٰ بلوغ العرب الأوائل سماء البلاغة وشمس جمالها، بأن يأتي البدوي الأمي الجلف فيبدع بفكره وقريحته المعنىٰ البديع والتشبيه المصيب، ... فيشتهي سامعها أن يحفظها، كقول امرئ القيس:

كـأن قلـوب الطيـر رطبـا ويابسـا لدىٰ وكرها العناب والحشف البالي(٢)

وذكر أقولا لغير العرب كسقراط والإسكندر وأرسطاطاليس وأنوشروان وأفلاطون وأردشير بن بابك وكسرىٰ، ومهد لذلك بقوله: (وسأذكر في هذا الموضع صدرا من الفصول المختارة من غير اللسان العربي مما يصلح للمذاكرة ويبعث علىٰ النشاط فإذا قرأها قارئ دلت علىٰ أنفسها في الإيجاز والحذف والجمع للمعاني الكثيرة بالألفاظ القليلة)(٣)

إن المتدبر لما سطره أبو هلال العسكري يجد صورة دقيقة لمجال البلاغة المقارنة سواء بين النصوص أو بين النظريات البلاغية، وجل ما ذكر منسول من خيوط الجاحظ ومبني عليه وشرح له، ومنها تستلهم المنهجية وعلينا وضع المعايير لهذا المنهج الضارب في عمق التراث العربي الأصيل.

---

(١) الرسالة السادسة عشرة/ التحفة البهية والطرفة الشهية/ ٢١٤/ دار الآفاق الجديدة-ط١-١٤٠١هـ-١٩٨١م

(٢) السابق والصفحة نفسها.

(٣) الرسالة السادسة عشرة/ التحفة البهية والطرفة الشهية/ ٢١٥.

وتجدر الإشارة إلىٰ ما فعله الفيلسوف اللغوي محمود الكاشغري في معجمه (ديوان لغات الترك) فقد ذكر أنه ألفه علىٰ منهجية معجم (العين) إلا أنه خالفه في المهمل من الكلمات، وتلك مقارنة بين منهجية كل منهما، فيقول: (ولقد تخالج في صدري أن ابني الكتاب كما بنىٰ الخليل كتاب العين واذكر المستعمل والمهمل...)(١)، ثم يقارن بين صنيعه وصنيع الخليل ابن أحمد الفراهيدي: (إلا أن هذا البناء أصوب. لما أن مأخذه أقرب. والناس فيه أرغب فأثبت المستعمل وأهملت المهمل طلبا للاختصار" ويعلن تميز منهجه قائلا: "وبرزت بتصنيف لم أسبق إليه، وتأليف لم يوقف عليه)(٢)، وهذه المقارنة بين معجم للهجات الترك كتب بالعربية وبين معجم العين واللمحات البلاغية المقارنة بين لغات الترك والعربية، والمقارنة بين المعجم اللغوي والقواعد الصرفية والنحوية العربية واللغة التركية الأم المنتشرة بصورة جلية في ديوانه(٣)، لبرهان علىٰ أن المسلمين من غير العرب ذوي التمكن من اللسان العربي كانت المقارنة منهجا خبروه في ميادين عديدة.

إن المنهج المقارن في البلاغة العربية منهج قديم أصيل، سواء فيما كان بين نص ونص، أو فكرة وفكرة، وهو ما يحتاج إلىٰ أسس ومعايير، لا يتسامح في تركها، ولا يتاح لباحث بلاغي أن يهملها أو يتخطاها، ويمكن أن أشارك في سبيل الوصول إلىٰ هذه الغاية الشريفة بتلك المعايير:

---

(١) مقدمة ديوان لغات الترك/ محمد الكاشغري/ ٣/ دار الخلافة العلية- مطبعة عامرة

(٢) السابق والصفحة نفسها.

(٣) ينظر/ محمود الكاشغري وجهوده العلمية في ديوان لغات الترك/ أساتذة قسم اللغة العربية/ الجامعة الكويتية الدولية ٢٠١٦م

١- دقة اختيار العنوان، فهو براعة استهلال للدراسة، ويجب ألا يحيف علىٰ أي من الدراسات المقارن بينها، والمتابع لما يطفو علىٰ الساحة غالبا ما يجد الجور واقعا علىٰ البلاغة العربية همزا ولمزا.

٢- التمكن من علوم البلاغة ومناهجها في مصادرها القديمة والحديثة، دون الاكتفاء بمنهج في مصادره القديمة وترك الدراسات الحديثة التي تبين عن بعض مناحيها العلمية، مما يكون سببا في رمي الدراسة بعيوب كالسطحية والنقص.

٣- حسن اختيار النظرية المراد المقارنة بينها وبين البلاغة العربية، والإحاطة بها شكلا ومضمونا، لتثري الدراسة ولتحسن الإفادة من كل جديد مناسب في تحديث المناهج البلاغية وتطوير طرق تدريسها.

٤- الوعي بخلفية النظرية، وهذا معيار قيم، فالعلوم الغربية تبدأ فلسفية ثم تتحول إلىٰ علوم، كالبنيوية ثم اللسانية ثم التداولية، وإذا لم يحط بذلك المترجم أولا ثم الباحث المقارن ثانيا سيتسرب هذا الأثر الفلسفي المادي أو الإلحادي أو المسيحي الوثني الكامن إلىٰ نفوس المتلقين ويختلط بفكرهم ويضحىٰ متبنيا لها دون وعي بل قد يجاهد في سبيل نشرها وتحقيق أهدافها في مجتمع ذي شخصية ثقافية مختلفة عما يدعو إليه.

٥- حسن اختيار النصوص الأجنبية التي ستقام المقارنة بينها وبين النصوص العربية، بأن يكون الموضوع واحدا، والترجمة موثوقة.

٦- استقراء جوانب الموضوع المطروح للمقارنة وتقسيمه إلىٰ محاور وتوضيحها لغة واصطلاحا.

٧- امتلاك مهارة النقد والمقارنة بين النظريتين أو الموضوعين المطروحين للدراسة المقارنة.

٨- القدرة علىٰ دراسة النظريتين دراسة نظرية وتطبيقية.

٩- توضيح المعايير الإنسانية المشتركة بين ثقافة أصحاب النظريتين العربية والغربية، مما يسهم في تحديد أوجه الاتفاق والتواصل بين الثقافتين، ليسهل اقتناص ما بين النظريتين من تواصل وتوافق.

١٠- بيان أوجه التباين بين ثقافة أصحاب النظريتين، حتىٰ لا يلتبس هذا الوجه، وتبتعد الدراسة عن جانب مهم في المنهج المقارن وهو أوجه الاختلاف بين النظريتين.

١١- اختيار ترجمة صادقة ودقيقة للنظرية الغربية المرادة.

١٢- طلب المساعدة أو المشاركة البحثية ممن يوثق فيهم من أهل اللغة الأم لأصحاب النظرية ما أمكن. ولو تشارك في مثل هذه الدراسات المقارنة باحث متخصص في البلاغة والنقد وباحث من كلية الترجمة لكان البحث دقيقا وذا شأن.

١٣- التطبيق الحذر لنتائج الدراسة التي اتفقت حولها البلاغة العربية والنظرية الغربية علىٰ النصوص العربية بصفة عامة، ونصوص الوحي الكريم بصفة خاصة، بحيث لا تلوىٰ أعناق النصوص من أجل إثبات ما لا يمكن إثباته، وتحقيق مالا يمكن تحقيقه، وألا يفرض علىٰ النص نظريات استلهمت من لغة أخرىٰ، وثقافة أخرىٰ، فكيف أقول في الآية الكريمة أو الحديث الشريف أو شعر امرئ القيس –مثلا- كذا وكذا كما رأىٰ أو قال (بير لمان، أو نعوم تشومسكي، أو غيرهما)؟! وقد وجدت هذا العنوان (خصائص ستيلستيك القرآن) في بحث تخرج لبعض طلاب جامعة مولانا مالك إبراهيم مالانج ٢٠١٠م، أليس هذا بأمر جلل في الدراسات التطبيقية التعليلية الحديثة؟!

١٤- التوازن في تناول كل نظرية، فلا تغلب دراسة أخرىٰ، فبعض الدراسات المقارنة تعطي النظرية الغربية أكثر من ٧٠٪، فإذا ما تناول الدراسة البلاغية أو بابا من أبوابها فإن باعه يقصر في تناولها، بل إن بعضها يكتفي بالقول المشهور بين الباحثين (ولهذه النظرية جذور في التراث البلاغي ...) وهذا لعمري تدليس علمي، فالحقيقة

أن تناول التراث العربي لها بالإشارة أو الإيجاز يناسب المعنيين في عصورهم، ففضل السبق لهم، وللغربيين فضل التناول العصري للمسألة، كما يجب أن نعلم أن أكثر كتب التراث مترجمة في مكتباتهم ولا شك أنهم اطلعوا علىٰ شيء منها، ولكنهم لا يشيرون إلىٰ ذلك، ولا يدلون عليه، فنعوم تشومسكي في كتابه النحو التوليدي تشابك مع نظرية النظم الجرجانية(١) ولم يشر مرة إلىٰ شيء من ذلك، وهذا ما يجب أن يتنبه له الباحث المقارن ويدل علىٰ مثله.

١٥- التوازن-أيضا-في ذكر الأسماء الذين يبنىٰ علىٰ أقوالهم التناول البلاغي للنظرية البلاغية العربية أو الغربية علىٰ السواء، فبعض الدراسات تغلب الأسماء الغربية ولا تكاد ترىٰ من أسماء العرب والمسلمين إلا النذر القليل، وهذا أمر خطير، فللكلمة تأثير علىٰ العقل، ولها تأثير في النفس، حيث تجعل المتلقين يعيشون جوا غير جوهم، وبيئة غير بيئتهم، وبمثله تفسد الحياة العلمية، وبناء علىٰ ذلك تفسد مجتمعاتنا بأيدينا لا بيد عمرو، وهذا أشد إفسادا من الغزو الثقافي عن طريق السلوكيات الاجتماعية والمأكولات الجاهزة والمشروبات الغازية التي سيطرت علىٰ المجتمعات المسلمة، ولله الأمر من قبل ومن بعد.

يقيني أن نتائج هذه الدراسات وفق هذا المعايير ستكون أقرب للصواب إن لم تكن صوابا حقيقة وواقعا، وستزيد الدراسات الحديثة ثراء وعطاء ومصداقية علمية، وسنجنب أبناء البلاغة العربية الوقوع فيما يعاب عليهم ويعيرون به.

وتطبيقا للبلاغة المقارنة بين النظريات وبين النصوص، وتطبيقا للمعايير التي ذكرت آنفا، أنتقل إلىٰ المقارنة بين نظريتين هما: فكرة رعاية المقام، والنظرية الحجاجية، ثم المقارنة بين نصين: أحدهما عربي والآخر روسي ترجم إلىٰ العربية؛ لتكون دراستنا ذات نتائج واقعية، مستفادة من التطبيق والتحليل.

---

(١) ينظر/ مقاربة بين نظرية النظم والنظرية التوليدية التحويلية (قواعد البنية والتركيب/ د/ جهان بلمولود/ ٧٨ وما بعدها/ مجلة الخليل في علوم اللسان/ ٢/ ع ٢-٢٠٢٣/

فكرة رعاية المقام العربية والنظرية الحجاجية الغربية دراسة مقارنة:

وهنا أتناول الخصائص العامة لكل من رعاية المقام في البلاغة العربية والحجاج في التراث الغربي الحديث، والمستهدف سوق المثال التطبيقي علىٰ ما قصدت إليه من تبيين المقصود بالبلاغة المقارنة فيما بين النظريات الوافدة وبلاغتنا الماجدة، ليكون ذلك أدعىٰ للقبول، وأيسر للولوج في هذا الميدان الفسيح.

أولا: رعاية المقام:

لقد بدأت برعاية المقام مع أن الأخف علىٰ اللسان أن أقول: الحجاج ورعاية المقام، وهو الأقرب للمتداول في سوق الدراسات الغالبة علىٰ الساحة، حيث يقدمون النظرية الغربية ثم يثنون بما يشير إليها في التراث العربي علىٰ استحياء، وهذا ما يجعل هذه البحوث وتلك الدراسات خفيفة الوزن لمجافاة الحقائق العلمية والتاريخية، فالبلاغة منذ نقدات ابن الخطاب وما كان في سوق عكاظ هي الأسبق تاريخيا بمئات السنين، فحق أن تتقدم في العنوان وفي التناول المقارن والنقدي، كما أن تراث البلاغة العربية الثري جدا سبق بالتناول الموجز لما يتناول من قضايا غربية حديثة، وهذا أيضا يجعل من مقتضيات البحث العلمي تقديمها علىٰ غيرها، لا أقول هذا من باب تقدير تراثنا واحترامه وإن كان هذا واجبا، ولكن الأمانة العلمية تطلبه وتقضيه.

البلاغة العربية عامة تواصلية، حيث (تعد التواصلية أهم ثابت بلاغي بعد أصالة نشأتها العربية والإسلامية الخالصة، وتتجلىٰ تواصليتها في جميع الدرس البلاغي ومباحثه، والتي تتمحور حول مقاصد المتكلم وأحوال المخاطب، وما سميت البلاغة بهذا الاسم إلا لبيان الوظيفة الرئيسة لها، وعلماء البلاغة المؤسسون كانوا بالغي الدقة في اختيار مسمياتهم للعلوم أصولا وفروعا، حيث نجد المعنىٰ اللغوي منبئا عن المعنىٰ الاصطلاحي وممهدا له في العقل؛ ليلج إلىٰ العلم المقصود بهذه الدلالة

اللغوية المصحوبة مع المعنىٰ الاصطلاحي. وتسمية هذا العلم الشريف بالبلاغة خير دليل.)[١]

وهذا ما تدل عليه اللغة المعجمية، فبلغ الشيء أي وصل وانتهىٰ،[٢] وتبعا للدلالة المعجمية عرفها البلاغيون في أسفارهم، كأبي هلال العسكري في قوله: (البلاغة كل ما تبلغ به المعنىٰ قلب السامع فتمكنه في نفسه كتمكنه في نفسك مع صورة مقبولة ومعرض حسن)[٣]فجلىٰ بذلك وظيفة البلاغة وهي حمل المعنىٰ إلىٰ قلب السامع قويا مكينا كما هو مكين في نفس المتكلم، وهذه التواصلية يجب أن تكون في صورة مقبولة وفي معرض حسن، ثم يحدد الإمام عبد القاهر وظيفة البلاغة حينما خط تعريفا لقضية النظم بقوله: (عبارة عن توخي معاني النحو في معاني الكلم)[٤]، وقد توهجت التواصلية في نظرية النظم مما جعلها ميدانا ثريا ووجهة رئيسة للدروس والبحوث اللسانية لكثير من الدراسين حسب مجال تخصصاتهم، وذلك لأن العقلية الجرجانية الفذة نفذت إلىٰ روح التراث العربي في عصوره المختلفة واستنطقت نصوصها ووقفت علىٰ ظواهرها وخصائص أساليبها بغية الوصول إلىٰ إعجاز البيان القرآني الكريم، وقد أثرت نظريته الفكر المعاصر الذي اتفق معها كلها

(١) البلاغة العربية والتداولية الغربية بين الثابت والمتغير-دراسة بلاغية نقدية/ د/ شحاتة عبد الرازق أبوشوشة/ ١٦٩٦/ مجلة كلية الدراسات الإسلامية والعربية بالإسكندرية/ ٣ مارس ١٤٤٤هـ-٢٠٢٣م

(٢) ينظر/ لسان العرب/ ابن منظور/ مادة/ بلغ/ دار صادر.

(٣) كتاب الصناعتين الكتابة والشعر/ أبو هلال العسكري/ ١٠/ ت/ علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم/ مطبعة/ عيسىٰ البابي الحلبي.

(٤) دلائل الإعجاز/ ٣٦٢/ ت/ محمود شاكر/ مكتبة وهبة.

أو في بعض جوانبها(١)، ثم انتقل الدرس البلاغي إلىٰ المنهج السكاكي وتبعه عليه الخطيب القزويني الذي عرف البلاغة بقوله: (بلاغة الكلام: مطابقته لمقتضىٰ الحال مع فصاحته)(٢)

وقضية رعاية المقام أو مقتضىٰ الحال هي أم القضايا البلاغية التي تنبه لها أئمة هذا العلم الشريف، وهذا المقتضىٰ لا يسير علىٰ نمط واحد، وإنما يتفاوت ويختلف تبعا لاختلاف المقام، (فمقام التنكير يباين مقام التعريف، ومقام الإطلاق يباين مقام التقييد، ومقام التقديم يباين مقام التأخير، ومقام الذكر يباين مقام الحذف، ومقام القصر يباين مقام خلافه، ومقام الفصل يباين مقام الوصل، ومقام الإيجاز يباين مقام الإطناب والمساواة، وكذا خطاب الذكي يباين خطاب الغبي)(٣) ولما كان التغاير والاختلاف سمة تداول الأيام واختلاف المكان بما في ذلك من عادات وثقافات فإن رعاية ذلك رأس بلاغة المتكلم، يقول الخطيب: (ارتفاع شأن الكلام في الحسن والقبول بمطابقته للاعتبار المناسب وانحطاطه بعدم مطابقته له. فمقتضىٰ الحال هو الاعتبار المناسب)(٤)، كما برزت وظيفة التواصلية البلاغية من خلال تعريف الخطيب لعلم المعاني بقوله: (علم يعرف به أحوال اللفظ العربي التي بها يطابق مقتضىٰ الحال)(٥)

(١) ينظر/ في البلاغة العربية/ محمود أحمد نخلة/ ٣٤.

(٢) الإيضاح/ ٢٠ .

(٣) السابق/ ٢٠.

(٤) السابق/ ٢٠.

(٥) السابق/ ٢١.

واشتهر قولهم لكل مقام مقال، أي يجب أن تتفق صورته مع حال المخاطب، بدءا من الكلمة فالأسلوب ثم الصورة ثم ما يقتضيه من تبيين بالطباق والمقابلة أو غيرهما أو ما يستدعيه من تطريب جناس أو سجع أو الموسيقىٰ الداخلية للنصوص، (ولقد كان البلاغيون عند اعترافهم بفكرة (المقام) متقدمين ألف سنة تقريبا علىٰ زمانهم، لأن الاعتراف بفكرتي (المقام) و(المقال) باعتبارهما أساسين متميزين من أسس تحليل المعنىٰ يعتبر الآن في الغرب من الكشوف التي جاءت نتيجة لمغامرات العقل المعاصر في دراسة اللغة)(١)، ولا تعجبني كلمة (الاعتراف) فكأنهم اضطروا لمجاراة خصم غلبهم فانصاعوا له واعترفوا بفضله، والبلاغيون (أسسوا علومهم باستقراء التراث العربي الثري، واستنبطوا قواعدهم بتدبرهم في ظواهر ما وصلهم من التراث وخصائصه، فليس صنيعهم اعترافا وإنما تأسيسا وإنتاجا لمعرفة خصبة منسولة من مادة لغوية ثرية، منها المقدس الكريم، ومنها الإنساني البديع.)(٢)

فكرة رعاية المقام أو الحال من الدروس الرئيسة التي قامت لها وبها وعليها البلاغة العربية، وستظل تؤدي دورا مبرزا في التناول البلاغي لأحوال المخاطبين واعتباراتهم وما يتفق مع ذلك من اعتبارات مناسبة بإيراد العبارة علىٰ صورة مخصوصة -بدأت مع بداية الدرس البلاغي الأول، فهذا ابن المقفع ١٤٥ه قال لما سئل عن المقصود بالبلاغة: (البلاغة اسم جامع لمعان تجري في وجوه كثيرة، فمنها ما يكون في السكوت، ومنها ما يكون الاستماع، ومنها ما يكون في الإشارة، ومنها ما يكون في الاحتجاج، ومنها ما يكون جوابا، ومنها ما يكون ابتداء، ومنها ما يكون شعرا، ومنها ما يكون سجعا وخطبا، ومنها ما يكون رسائل. فعامة ما يكون من هذه

(١) اللغة العربية معناها ومبناها/ تمام حسان/ ٣٣٧/ عالم الكتب-القاهرة ط٤ ٢٠٠٤م

(٢) البلاغة العربية والتداولية الغربية/ ١٦٩٩، ١٧٠٠.

الأبواب الوحي فيها، والإشارة إلىٰ المعنىٰ، والإيجاز، هو المعنىٰ، فأما الخطب بين السماطين وفي إصلاح ذات البين، فالإكثار في غير خطل، والإطالة في غير إملال، وليكن في صدر كلامك دليل علىٰ حاجتك، ...إذا أعطيت كل مقام حقه، وقمت بالذي يجب من سياسة ذلك المقام، وأرضيت من يعرف حقوق الكلام، فلا تهتم لما فاتك من رضا الحاسد والعدو، فإنه لا يرضيهما شيء. وأما الجاهل فلست منه وليس منك. ورضا جميع الناس شيء لا تناله)(١)

وهذا القول جامع لأمور كثيرة في الحقل البلاغي، منها: رعاية المقام ووسائل تحقيقه، وعدم اختصاص رعاية المقام بالشعر وحده وإنما يلزم مراعاتها في النثر أيضا، والاحتجاج وإقامة الدليل والبرهان (الإقناع).

وكان القول المأثور (لكل مقام مقال) صريحا في قول بشر بن المعتمر (٢١٠) في رسالته، فيقول: (والمعنىٰ ليس يشرف بأن يكون من معاني الخاصة، وكذلك ليس يتضع بأن يكون من معاني العامة وإنما مدار الشرف علىٰ الصواب وإحراز المنفعة، مع موافقة الحال، وما يجب لكل مقام من المقال)(٢)، فشرف الكلام أن يوافق الحال، وأن يراعي المقامات وما تقضيه من اعتبارات، هي إشارة مختصرة لكنها معبرة، وموجزة لكنها شارحة، فجمعت محاسن البلاغة وحدودها التي يجب ألا تنصرف عنها لتتحقق تواصليتها وتؤدي الغرض المراد منها.

ومن أوائل علماء العربية والبلاغة الذين تناولوا هذه القضية الجاحظ نفسه (٢٢٥ه) الذي نقل لنا ما سبق من قول عبد الله ابن المقفع وبشر بن المعتمر، فيقول عن البيان القرآني الكريم: (ورأينا الله تبارك وتعالىٰ إذا خاطب العرب والأعراب أخرج

(١) البلاغة العربية والتداولية الغربية ١/ ١١٤.

(٢) البيان والتبيين/ ١/ ١٢٩.

الكلام مخرج الإشارة والوحي والحذف، وإذا خاطب بني اسرائيل أو حكىٰ عنهم جعله مبسوطًا وزاد في الكلام)(١)، فأهل العربية تكفيهم الإشارة والإيجاز، وأما بنو إسرائيل فيحتاجون إلىٰ بسط الكلام وإطنابه، ليكون ذلك أدعىٰ إلىٰ الفهم دون مماطلة ومجادلة بما هو معلوم عنهم، وعاد إلىٰ فكرة المقام والحال مرة أخرىٰ من كتابه، وختم عبارته بقوله: (ولكل مقام مقال، ولكل صناعة شكل)(٢)، وأضاف إلىٰ قضية رعاية المقام بعدا مهما، بأن البليغ يختار لك معنىٰ مناسبا للمقام شكلا وما يناسبه من ألفاظ وتراكيب ومجاز، ولعل من هذا الباب انطلق البلاغيون في تناول باب الإطناب والإيجاز فقالوا: (إن الإيجاز ينبغي أن يستعمل في مخاطبة الخاصة وذوي الأفهام الثاقبة الذين يجتزئون بيسر القول عن كثيره وبجمله عن تفسيره، وفي المواعظ والسنن والوصايا التي يراد حفظها ونقلها... وأما الإطالة: ففي مخاطبة العوام ومن ليس من ذوي الأفهام ومن لا يكتفي من القول بيسره، ولا يتفق ذهنه إلا بتكريره وإيضاح تفسيره)(٣)

ولا يفوتني أن أزيد ما أشار إليه ابن المقفع أن رعاية المقام لا تختص بالشعر وحده-بيانا، حيث أرشد ابن وهب إلىٰ أهمية مراعاة حالة المخاطبين أثناء القيام بمخاطبتهم ومدىٰ احتمالهم ونشاطهم، فيقول: (وإذا رأىٰ الخطيب من القوم إقبالا عليه وإنصاتا لقوله فأحبوا أن يزيدهم، زادهم علىٰ مقدار احتمالهم ونشاطهم، وإذا تبين منهم إعراضا عنه وتثاقلا عن استماع قوله خفف عنهم، فقد قيل من لم ينشط

---

(١) الحيوان/ الجاحظ/ ١/ ٩٤/ ت/ عبد السلام هارون/ المجمع العلمي العربي الإسلامي – بيروت ٢٩٩٦م

(٢) السابق/ ١/ ٣٦٨، ٣٦٩.

(٣) البرهان في وجوه البيان/ ابن وهب/ ٩٧/ دار الكتب العلمية – بيروت لبنان ١٩٨٢م

لكلامك فارفع عنه مئونة الاستماع منك)[١]، فالمتلقي هو المعني الأول بالنص، وعلىٰ المتكلم التركيز علىٰ الوسائل اللغوية والبراهين العقلية ذات الإقناع والإثارة والتهييج.

وكالعادة تثير دراسات الإمام عبد القاهر وإشاراته حول دور المخاطبين في تمثل الصورة وما يترتب علىٰ ذلك من أثر نفسي – الدرس النقدي الحديث (إذ اهتمّ النقاد بدور المتلقي في فهم النص والإبداع فيه، عن طريق النظرة المتأملة في النص التي تتجاوز ظاهر الألفاظ إلىٰ روحها وإيحاءاتها، فغدا لديهم ما يُعرف بنظرية التلقي التي أخذت تتطور في الفكر النقدي، فأصبح النص يختلف باختلاف القارئ المتلقي، فكل متلقٍ يخلع علىٰ النص من ذاته وعوالمها الخاصة، فيغدو مبدعا جديدا)[٢]، وأصبح إنتاج النصوص الإبداعية لا يتوقف علىٰ الأديب وحده، حيث أصبح للقارئ والسامع دورا فاعلا في العملية الإبداعية.[٣].

وتتراءىٰ لنا هنا فكرة الجمال البلاغي الذي يؤدي دوره في التربية وتغيير القناعات لتحقق رسالة المتكلم هدفها، وهذا الجمال يقوم علىٰ أمرين: الإمتاع والإقناع، وهما حدا البلاغة، إذ لا يتصور أن يراعىٰ حال المخاطبين بدونهما، فبعض الناس تغلبه عاطفته ومزاجه النفسي، فينال منه خيرا بمخاطبتها، وبعض الناس يقوده عقله، ولا ينقاد إلا بالحجة القاطعة، ولم تتوقف الفكرة عند هذا الحد، بل اتسعت لتشمل حال

---

(١) البرهان في وجوه البيان/ ابن وهب/ ٩٥/ د/ حفني محمد شرف/ مطبعة الرسالة/ ١٣٨٩ هـ – ١٩٦٩ م.

(٢) القيم التربوية والجمالية في مفهوم التمثيل عند عبد القاهر الجرجاني/ د/ محمد عبد الله أبو الرب، د/ عبد العزيز موسىٰ درويش/ ١٩٨/ مجلة بحوث التربية النوعية– جامعة المنصورة – عدد خاص ٢٠– فبراير ٢٠١١م.

(٣) ينظر/ من سلطة النص إلىٰ سلطة القارئ/ فضل ثامر/ ٩٨/ ع ٤٩/ مجلة الفكر العربي.

المتكلم، إذ يمكن أن تقف علىٰ جوانيته من قوله، يقول ابن رشيق القيرواني: (لكل مقام مقال: وشعر الشاعر لنفسه وفي مراده، وأمور ذاته-من مدح وغزل ومكاتبة ومجون، وخمرية وما أشبه ذلك-غير شعره في قصائد الحفل التي يقوم بها بين السماطين)(١)، فالشاعر أو المتكلم مكشوف أمام المخاطبين أيضا بما يجري علىٰ لسانه من كلمات هي جزء من نفسه وقطعة من روحه.

إن رعاية المقام لتتسع حتىٰ تتخطىٰ ملاحظة المخاطب أو المتكلم إلىٰ أن تسع المشترك الإنساني العام، والقضايا المجتمعية التي تشغل الدنيا، يقول محمد العمري: (كثيرا ما ارتبط المقام في البلاغة العربية بزيادة شرح وتحديد، وذلك بالحديث عن أقدار السامعين ومقتضىٰ أحوالهم، فبمثل هذا التوضيح نرتبط ارتباطا مباشرا بالخطاب الإقناعي، وهو الخطاب المقامي بالمفهوم الضيق والمحدد للمقام. ولإجلاء الصورة، نشير مبدئيا إلىٰ أن المقام يضيق حتىٰ يقتصر علىٰ مراعاة حال المخاطب في لحظة محددة معلومة سلفا للمخاطب، ويتسع حتىٰ يسع المجال أو الإطار الحضاري المشترك بين الناس عامة أو داخل نسق حضاري ذي طابع متميز)(٢)

سيطرة المقام علىٰ الرسالة الموجهة إلىٰ المخاطب غالبة، لا يجد المتكلم بدا من الانصياع لها، وتحقيق متطلباتها، فطن إلىٰ ذلك السكاكي فقال: (لا يخفىٰ عليك أن

---

(١) العمدة في محاسن الشعر وآدابه/ ابن رشيق القيرواني/ ١/ ٢٠٨/ ت/ محمد عبد القادر أحمد عطا/ دار الكتب العلمية/ ط٢/ ١٤٢٢ه-٢٠٠١م، وينظر/ منهاج البلغاء وسراج الأدباء/ حازم القرطاجني/ ٣٥٦ وما بعدها/ ت/ محمد الحبيب بن الخوجة/ دار الغرب الإسلامي بيروت لبنان/ ط٣/ ١٩٨٦م.

(٢) نظرية الأدب في القرن العشرين/ محمد العمري/ ١٢٢/ أفريقيا الشرق- المغرب/ ط٢/ ٢٠١٤م.

مقامات الكلام متفاوتة ، فمقام التشكر يباين مقام الشكاية ، ومقام التهنئة يباين مقام التعزية ، ومقام المدح يباين مقام الذم ، ومقام الترغيب يباين مقام الترهيب ، ومقام الجد في جميع ذلك يباين مقام الهزل)(١) والعبرة في جمال الرسالة وحسنها أن تناسب المتلقي وتراعي أحواله (وارتفاع شأن الكلام في باب الحسن والقبول وانحطاطه في ذلك بحسب مصادفة الكلام لما يليق به، وهو الذي نسميه مقتضىٰ الحال، فإن كان مقتضىٰ الحال إطلاق الحكم، فحسن الكلام تجريده عن مؤكدات الحكم، وإن كان مقتضىٰ الحال بخلاف ذلك، فحسن الكلام تحلّيه بشيء من ذلك بحسب المقتضىٰ ضعفا وقوة)(٢) وهو يشير هنا إلىٰ درس أضرب الخبر، ومتىٰ يساق الكلام مؤكدا أو بدونه.

وهذا الدرس –أضرب الخبر– نشأ مع استهلال نشأة علوم البلاغة، حيث أورد الإمام عبد القاهر رواية أبي إسحاق الكندي مع أبي العباس المبرد، حيث ظن الكندي أن ثمة حشوا في قولهم: عبد الله قائم– إن عبد الله قائم – إن عبد الله لقائم. والمعنىٰ – في ظنه– واحد، فقال أبو العباس: بل المعاني مختلفةٌ لاختلافِ الألفاظِ، فقولُهم: "عبدُ الله قائمٌ"، إخبار عن قيامه وقولهم: "إن عبد الله قائمٌ"، جوابٌ عن سؤالِ سائلٍ وقولهم: "إنَّ عبدَ اللهِ لقائمٌ"، جوابٌ عن إنكارِ مُنْكِرٍ قيامَهُ، فقد تَكرَرَّت الألفاظُ لتكرُّرِ المعاني(٣).

درس رعاية المقام جعل للبلاغة العربية إثارة وخصوبة تنمو بها الدروس التحليلية الذوقية، لعنايتها بأحوال المخاطبين بوسائل الإمتاع الوجداني والإقناع

(١) مفتاح العلوم/ ١٦٨.

(٢) السابق/ ١٦٩.

(٣) دلائل الإعجاز/ ٣١٥.

العقلي، وهي أيضا جعلت لباس البلاغة فضفاضا يسع ما يستجد من أحوال مع تغاير الزمان والمكان.

لقد أحسن إلينا الأجداد المؤسسون مرتين: الأولىٰ أنهم أسسوا لنا هذا العلم الشريف بمناهجه الثلاثة (الجاحظية والجرجانية والسكاكية)، والثانية بأن تركوا لنا مساحات كثيرة تتيح لنا تجديد دروسها وفقا لما يستجد من أحوال كما في قضية رعاية المقام، ليظل هذا العلم ألقا يؤدي دوره الجمالي الإقناعي الإصلاحي.

وأختم تناولي لدرس رعاية المقام بأن ما يفهم من التراث البلاغي الذي تناول هذه القضية -أن النص المقدم للمخاطب شعرا كان أو نثرا يجب أن يناسب حال المخاطبين، فامرؤ القيس إمام الشعراء العرب ناسب شعره قومه، وعبر عن ذاته، فإذا عاش بيننا وأنشد مثل معلقته قفا نبك مخاطبا أهل زماننا فلم يعد –حينئذ- للشعراء إماما، ولا يعني هذا أن يتكلم بالعامية ويتجنب الفصحىٰ، وإنما أريد أن (يكون الأديب عارفا بسنن التخاطب المجتمعي فيما بينهم وملما بالعادات والتقاليد، وأساليبهم حينما يفخرون أو يتهاجون أو يتعاتبون أو يعتذرون، فالبلاغة إذن لا تقف عند حد شروط الفصاحة والتمكن من الأساليب، وإنما تتطلب أن يكون الأديب فقيها بواقع مجتمعه والفروق بين أفراده وجماعاته)[(١)].

خلاصة الأمر:

بلاغتنا هي الحارس لفصاحة مفرداتنا ومستوىٰ بلاغة شعرنا ونثرنا، فهي التي استمدت من البيان الكريم: قرآنا وسنة، ومن الإبداع الإنساني العالي، ولو كانت هذه وظيفتها فحسب لوجب تقديرها والاهتمام بها، ولكنها مع ذلك علم تواصلي يعتمد علىٰ ركنين يمثلان جماله وحسنه وهما: الوسائل الإمتاعية، والحجج الإقناعية عن طريق مستوىٰ لغوي بليغ مناسب لقدرات المخاطبين ومتناغم مع ملكاتهم البيانية.

درس رعاية المقام كشف عن أركان أربعة في تناوله: المقام – المتكلم – الإمتاع – الإقناع- يساق ذلك في لغة بليغة تكون جسرا بين المتكلم والمخاطبين.

---

(١) البلاغة العربية والتداولية الغربية/ ١٧١٠

ثانيا: النظرية الحجاجية:

ومن هذه النظريات التي شغلت الساحة البلاغية، ووسمت بالبلاغة الجديدة (**الحجاج**) فقد وفدت إلينا عن طريق الترجمة للدراسات الغربية الحديثة لإعادة إحياء التراث الفكري والثقافي لأرسطو وغيره، وأصبحت مركزا لمئات الدراسات والبحوث والمنشورات، وكان الأجدىٰ علميا، والأتقىٰ مقصديا أن تدرس وفق منهج يقارن بينها وبين البلاغة العربية بصفة عامة أو بينها وبين رعاية المقام بصفة خاصة، فالأولىٰ وافدة، والثانية بنت فكرنا وتراثنا وحيا مباركا وإنسانيا بديعا، ثم تعطىٰ نتائج بحثية دون اتباع هوىٰ.

في النصف الثاني من القرن العشرين صدر كتابان هما: "رسالة في الحجاج، البلاغة الجديدة" لكل من شاييم بيرلمان وتيتكا ، ثم كتاب "استخدامات الحجة" لستيفان تولمين، وما البلاغة الجديدة إلا إحياء لنظرية أرسطو القديمة، فقد حاول (بيرلمان) بعث البلاغة اليونانية القديمة، من ناحية رآها مهمة وهي الحجاجية، ومن هنا سميت بالبلاغة الجديدة.

منذ أن ألف أرسطو كتابه (الخطابة) وأضحت فكرة الحجاج واضحة المعالم من أجل الإقناع، فيقول: (إن الريطورية (ويعني الخطابة) ترجع إلىٰ الديالقطيقية (أي صناعة الجدل) وكلتاهما توجد من أجل شيء واحد "الإقناع")[1]، وبما أن فن الخطابة يواجه به مع الجماهير فإن وظيفته الأهم هي الإقناع وتغيير القناعات وإذعان الخصم إلىٰ وجهة نظر المتكلم، ومن هنا جعل أرسطو الحجاج عاملا متفاعلا بين الخطاب والجدل، ف (الخطابة بالمفهوم اليوناني ... كما ترجمها العرب القدامىٰ هي

(١) الخطابة/ أرسطو/ ٣/ ت/ عبد الرحمن بدوي/ وكالة المطبوعات الكويت، دار القلم بيروت١٩٧٩م

فن الإقناع عن طريق الخطاب وأن الوظيفة الإقناعية هي وظيفتها الأولىٰ)[١]، وسر الاهتمام بالحجاج لكونه عبارة عن مجموعة من الأدلة والبراهين المنطقية القوية تقدم في سياق الحوارات والمناظرات؛ لتحقيق الأهداف المرجوة، سواء كانت إقناع الخصم، أو كسب تأييد الجمهور، أو الحصول علىٰ حل وسط، فهو عمل عقلي سواء في اختيار الأدلة، أو في طريقة طرح الأسئلة.

ثم تداولت القرون وغلب علىٰ البلاغة الغربية روح الاهتمام بالصياغة والصورة والتحسين، وظلت تتلاشىٰ فكرة الحجاجية لصالح البلاغة الجمالية، ووصفت هذه البلاغة بالقديمة[٢]، ومن ثم (انبرت طائفة من البلاغيين المعاصرين يحاولون قراءة الموروث القديم قصد إعادة الاعتبار لركنها الحجاجي، وإعطائها صبغة علمية جديدة)[٣]، حملت هذه الطائفة لواء الارتقاء بالبلاغة اليونانية، وبذلوا جهودا كبيرة إلىٰ أن تمكنوا من (أن يجعلوا من البلاغة مبحثا علميا عصريا)[٤]، وهو مجهود يحمد ويشكر وينوه به.

ومع هذا يمكنني أن أقول إن القفزة البلاغية الأهم هي التي قادها (بيرلمان) في البلاغة الجديدة، والتي كانت سببا في بلوغه منزلة عالية بين أقرانه، وحظي بشهرة

---

(١) الحجاج في الشعر العربي القديم من الجاهلية إلىٰ القرن الثاني للهجرة-بنيته وأساليبه/ سامية الدريدي/ ١٦/ عالم الكتب الحديث/ أربد عمان الأردن/ د١-١٤٢٨ه-٢٠٠٨م.

(٢) ينظر/ قراءة جديدة للبلاغة القديمة/ رولان بارث/ ٢٣، ٢٤/ ترجمة عمر أوكان/ دار إفريقيا الشرق. المغرب.

(٣) البلاغة الجديدة (النظرية الحجاجية) عند بيرلمان-محاولة تأصيل/ نور الدين بوزناشة/ ٢٠٩/ جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية.

(٤) البلاغة والأسلوبية -نموذج سيميائي لتحليل النص/ همريش بليت/ ٢٢/ ترجمة محمد العمري/ أفريقيا الشرق-المغرب/ ١٩٩٩م

واسعة في الوسط العلمي، وبثناء الكثير علىٰ صنيعه، قال ميشال ماير: (إن الثورة الكبرىٰ في البلاغة خلال هذا القرن قد أنجزها، سواء سلمنا بذلك أم لا "شايم بيرلمان"... هناك طريقة جديدة لفهم البلاغة وطبيعتها ودورها، إن آثاره ستقرأ خلال القرون المستقبلة)(١)

وأصبح الحجاج عنده وزميله تيتيكاه له حد بكونه (جملة التقنيات الخطابية التي تمكن مستعمليها من إثارة الاعتقاد أو ترسيخه في العقول من خلال أطروحات مقدمة وأقوال معروضة)(٢)، فلن يكون الخطيب ناجحا في قوله، ولا ناجعا في تأثيره إلا بما يملك من وسائل ترسخ طرحه في عقول الجمهور

والفرق بين البلاغة الجديدة وبين بلاغة أرسطو يتعلق (بالخطابات الموجهة إلىٰ كل أنواع المستمعين سواء تعلق الأمر بجمهور حاضر ضمن ساحة عمومية أم باجتماع لمتخصصين، أو تعلق الأمر بشخص واحد، ثم هي تهتم بالحجج التي قد يوجهها المتكلم إلىٰ نفسه في مقام حواري ذاتي، بمعنىٰ أنها وسعت دائرة المستمع أو المقام بخلاف الحال عند أرسطو الذي ضيقه وحصره بجمهور مجتمع في ميدان ما)(٣)، وهذه التوسعة إضافة مهمة لا يمكن تجاوزها، وكل إضافة مفيدة للتراث القديم تكتسي بها البلاغة ثوبا لافتا، وتزيد الرغبة في البحث والدراسة والمقارنة.

---

(١) نقلا عن/ البلاغة الجديدة (النظرية الحجاجية)/ ٢٠٩.

(٢) نقلا عن / الحجاج بين المنوال والمثال/ د/ علي الشبعان/ ١٥/ مسكلياني للنشر والتوزيع- تونس.

(٣) البلاغة الجديدة (النظرية الحجاجية)/ ٢١١.، وينظر/ الاستعارة في محطات يونانية وعربية وغربية/ محمد الولي/ ٣٥٥/ درا الأمان-الرباط-المغرب ط١-٢٠٠٥م

وكما وسعت البلاغة الجديدة في أنواع الجماهير، وسعت كذلك في موضوعها، فلم تحصر نفسها في دائرة ضيقة لا تتجاوز حدود الاستدلالات الصورية أو الحساب الآلي، وإنما أضحت تحتوي كل خطاب قصد به الإقناع، مادام لا يعارض ما هو يقيني، يقول بيرلمان: (الحجاج لا يكون أبدا في موضع يسمح له بادعاء اليقين، ولا جدوىٰ من الحجاج ضد ما هو يقيني ...الحجاج لا يتدخل إلا في الحالات التي يكون فيها اليقين موضع طعن)(١)، وبهذه الرؤية للحجاج وبهذه النظرة الواسعة في موضوع البلاغة توسعت دائرة الحجاج بانفتاحه علىٰ حقول علمية أخرىٰ كالفلسفة واللسانيات والقانون والفنون والتربية والأخلاق والحديث اليومي العادي، مما يثري هذه العلوم وينمي دورها في المجتمعات المختلفة(٢)، وبهذا التوسع في الجمهور وفي التناول وفي الحقول المعرفية تكون البلاغة اليونانية نالت مكانتها وحظيت برد اعتبار لها بعدما كانت علما مهجورا.

البلاغة الجديدة أحيت البلاغة اليونانية القديمة عند أفلاطون وأرسطو، يقول بارث: (يتجلىٰ ظفر البلاغة في سيطرتها علىٰ التعليم وبانحسارها في هذا القطاع، فقد بدأت تسقط بالتدريج في دائرة الإهمال الفكري التام)(٣)، لقد وضع يده علىٰ السبب الأهم في موت البلاغة وهو انحسارها عن كل مناحي الحياة وجوانب المجتمعات وأحوال الجماهير لتقبع فقط في الفصول الدراسية، وهو الأمر الذي يجب أن يحل حلولا ناجعة، تجعل لهذا العلم أثرا في المجتمعات.

---

(١) نقال عن/ السابق/ ٢١١.

(٢) ينظر/ البلاغة الجديدة (النظرية الحجاجية)/ ٢١١، ٢١٢.

(٣) نقلا عن/ الاستعارة في محطات يونانية وعربية وغربية/ ٣٨.

والأمر الثاني في موت البلاغة الغربية هو (اليقينية) التي تؤمن بالثابت لا بالمتغير، (هذه اليقينية استقلت منذ القرن السادس عشر في ثلاثة اتجاهات: اليقينية الشخصية (مشخصة في البروتستانتية)، اليقينية العقلانية (متمثلة في الديكارتية)، واليقينية الحسية (متمثلة في التجريبية)[١]، والميدان البلاغي يتراجع في مثل هذه الأجواء التي سيطرت علىٰ المجتمعات الغربية، لكون البلاغة الحجاجية تنتشي وتتوهج في الأجواء التي يكون فيها الخلاف رائجا.

ولم تخل البلاغة الجديدة أو النظرية الحجاجية لبيرلمان من شروط إذا لم تتوفر فلن تكون للحجاج قيمة، (وهذه الشروط يمكن جمعها في النقاط الآتية:

- أن يحصل ضرب من التفاعل والالتقاء الثقافي بين المحاج والمحجوج، وهو ما ينتج عنه إيلاء أهمية معتبرة إلىٰ الظروف النفسية والاجتماعية التي دونها يصبح الحجاج خلوا من الموضوع والأثر علىٰ السواء.
- الحجاج ليس استدلالا تعليليا يدور في حقل البرهان المنطقي المحض وخارج كل اندراج للذات، بل يطلب أمرا آخر معاكسا لذلك تماما وهو وجود العلاقة التفاعلية بين الباث والمتقبل)[٢]، وقد عبر بيرلمان عن ذلك بقوله: (بما أن الغاية من الحجاج هي إثارة مستمع ما واستمالته نحو الأطروحات المراد تزكيتها، أو زيادة التزكية وليس استنباط النتائج من بعض المقدمات فإنها لا تدور في فراغ، إنها تقتضي تماس فكري الخطيب والمستمع، ينبغي للخطاب أن يكون مسموعا ولكتاب ما أن

(١) نقلا عن/ قراءة جديدة للبلاغة القديمة/ ٣٨.

(٢) الحجاج بين المنوال والمثال/ ١٦.

يكون مقروءا، إذ بدون هذا يغدو تأثيرها صفرا)[١]، والقول كاشف عن وجود المستمع أو القارئ كطرف رئيس في العملية الحجاجية.

فلم تهمل البلاغة البيرلمانية المستمع الذي يتعدد بحسب المقام، فمن يخاطب الجمهور كرئيس غير من يخاطب جمهورا كرجل دين أو محام، أو مدير، ولكل مستمع من البراهين الحجاجية التي يمكنها التأثير فيه وتغيير قناعاته، يقول محمد ولد سالم: (الحجاج عرضة للتغير والتحوير في بنائه وأنساقه التي يقوم عليها وذلك تبعا لتغير المقام، وتغير ظروف المحاجج حتىٰ وإن ظل النقاش هو ذاته)[٢]

والتعرف علىٰ المخاطب فردا كان أو جمهورا مهما في نجاح العملية الحجاجية، وذلك عن طريق الأسئلة والأجوبة مع المستمع الفرد، ويمكن هذا الخطيب من النجاح في التأثير فيه، وإذا لم يلتفت إلىٰ ما وراء الأسئلة والأجوبة وأهملها فإنه سيكون أنانيا فاشلا في مهمته.[٣]

وعليه أن ينطلق من مسلمات المخاطب، حتىٰ ينجح في التأثير فيه وإقناعه، والمسلمات التي تحظىٰ بالقبول التام هي الطريق الأمثل لتفادي الخطيب الفشل في مقصده، و(إن ذلك الذي يتجاهل في حجاجه قبول المستمع لمسلمات خطابه يقترف خطأ كبيرا وهو المصادرة علىٰ المطلوب)[٤]، وينبغي أن تكون المسلمة بعيدة كل البعد عن النقض أو النقص لكي تحقق استمالة الجمهور واستجابته لما يطرح عليه.

---

(١) نقلا عن / البلاغة الجديدة (النظرية الحجاجية) ٢١٩.

(٢) مفهوم الحجاج عند بيرلمان وتطوره في البلاغة المعاصرة/ محمد ولد سالم محمد الأمين/ ٦١.

(٣) ينظر/ الاستعارة في محطات يونانية وعربية وغربية/ ٣٦٩.

(٤) نقلا عن/ البلاغة الجديدة (النظرية الحجاجية) / ٢٢٣.

جميع ما سبق يحدد ما يتميز به الحجاج عند بيرلمان وملامحه التي لا تغيب عنه، وهي كالآتي(١):

-التوجه إلىٰ مستمع- التعبير بلغة طبيعية- احتمالية مسلماته - ينمو ويتقدم بدون الحاجة التامة إلىٰ ضرورات منطقية - نتائجه غير ملزمة.

وقسم بيرلمان الحجج إلى ما يأتي:

- **الحجج شبه منطقية.**
- **الحجج القائمة علىٰ بنية الواقع.**
- **الحجج القائمة علىٰ إعادة بناء الواقع.(٢)**

مما سبق نخلص إلى:

-أن الحجاج امتداد لبلاغة أرسطو، فهي الأساس الذي انطلقت منه البلاغة الجديدة، ولما انحسرت البلاغة الأرسطية في اللغة الحسنة والعبارة المزخرفة أصبحت لغة بعيدة عن الواقع لا تتداول إلا في الفصول التعليمية.

-الطفرة التي قام بها بيرلمان في النظرية الحجاجية نجم عنها الاهتمام بالحجج والبراهين المقنعة وبالسامع والتعرف عليه بوصفه طرفا فاعلا في العملية الحجاجية.

-التفتت إلىٰ الموضوع وتنوعه وسعة ميادين البلاغة الجديدة وتسليط الضوء علىٰ المسلمات كمحور ضروري في استمالة المستمع.

-تقسيم الحجج بغية أن تكون أداة لنجاح العملية التواصلية الحجاجية.

وبهذا تكون البلاغة الجديدة اكتست ثوبا جديدا مثيرا لطلاب العلم وللخطباء الذين يواجهون جمهورا متعدد الثقافات والقيم والمزاجية النفسية.

---

(١) مفهوم الحجاج عند بيرلمان/ محمد سالم ولد الأمين/ ٥٠/ دار الروافد الثقافية/ ط١-٢٠١٣/

(٢) السابق/ ٢٢٧.

لمحة وريقات ووقفات مقارنة:

في بيان أوجه الاتفاق والاختلاف بين فكرة رعاية المقام والنظرية الحجاجية بعد العرض السابق–عدة وقفات:

الوقفة الأولى: لا يعد الأسلوب الحجاجي غريبا عن التراث العربي والإسلامي، ففي معجم الفروق فرق بين الجدال والحجاج، ب (أن المطلوب بالحجاج هو ظهور الحجة، والمطلوب بالجدال: الرجوع عن المذهب)(١)، ومطلق ظهور الحجة تعني أن الحجاج أوسع دلالة من الجدال، فكل جدال حجاج، وليس كل جدال حجاج، وعلىٰ هذا جاء قول ابن فارس: (حَاجَجْتُ فُلَانًا فَحَجَجْتُهُ أَيْ غَلَبْتُهُ بِالْحُجَّةِ، وَذَلِكَ الظَّفَرُ يَكُونُ عِنْدَ الْخُصُومَةِ، وَالْجَمْعُ حُجَجٌ. وَالْمَصْدَرُ الْحِجَاجُ)(٢)، وقول ابن منظور: (التحاج: التخاصم)(٣)، ولا شك أن التصادم والتنازع والتسابق يقتضي أن يبذل كل ما في وسعه من الحجج التي تبرز رأيه، وتعلن صدقه، وتحسم موقفه.

وبلغت المواقع المشتقة من مادة (حجج) في البيان القرآني وفق إحصاء الدكتورة/ لمهابة محفوظ ميارة، مستدركة علىٰ إحصاء سابق لابن الحنبلي الذي بلغ بها (٢٧) مرة (٤)، وأما الحجاج في الحديث الشريف فقد (كان حاضرا في جميع الموضوعات "العبادات، والمعاملات، والأخلاق والآداب، والرقائق، ..." ... مما

---

(١) معجم الفروق اللغوية، الحاوي لكتاب أبي هلال، وجزءًا من كتاب «فروق اللغات» لنور الدين بن نعمة الله الجزائري/ ١٥٨/ مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بـ (قُمّ)

(٢) مقاييس اللغة/ ٢/ ٣٠/ مادة/ حج.

(٣) لسان العرب/ مادة حجج.

(٤) ينظر/ مفهوم الحجاج في القرآن الكريم/ د/ لمهابة محفوظ ميارة/ ١٠، ١١، مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق/ مجلد ٨١/ جزء/ ٣، واستخراج الجدال من القرآن الكريم/ الإمام ناصح الدين عبد الرحمن بن نجم المعروف (بابن الحنبلي/ ٥١/ ت/ د/ زاهر عواض الألمعي/ مؤسسة الرسالة–بيروت/ ط١–١٩٨٠م.

يشير إلىٰ أن الحجاج منهج أصيل راسخ في الخطاب النبوي وموصول بما يعيشه المسلم في يومه وغده)(١)، وخير ما يساق من أمثلة علىٰ ذلك، ما رواه الإمام أحمد عن أبي أمامة رضي الله عنه قال: (إن فتىٰ شابًّا أتىٰ النبيَّ صلىٰ الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله، ائذن لي بالزنا! فأقبل القوم عليه فزجروه، وقالوا: مه مه! فقال: "ادنه"، فدنا منه قريبًا، قال: فجلس، قال: "أتحبه لأمك؟"، قال: لا والله، جعلني الله فداءك، قال: "ولا الناس يحبونه لأمهاتهم"، قال: "أفتحبه لابنتك؟"، قال: لا والله يا رسول الله، جعلني الله فداءك، قال: "ولا الناس يحبونه لبناتهم"، قال: "أفتحبه لأختك"، قال: لا والله، جعلني الله فداءك، قال: "ولا الناس يحبونه لأخواتهم"، قال: "أفتحبه لعمتك؟"، قال: لا والله، جعلني الله فداءك، قال: "ولا الناس يحبونه لعمَّاتهم"، قال: "أفتحبه لخالتك"، قال: لا والله، جعلني الله فداءك، قال: "ولا الناس يحبونه لخالاتهم" ، قال: فوضع يده عليه، وقال: "اللهم اغفر ذنبه، وطهر قلبه، وحصِّن فَرْجَه" ، فلم يكن بعد – ذلك الفتىٰ – يلتفت إلىٰ شيء)(٢).

جلي من هذا البيان النبوي الكريم فقه النبي–صلىٰ الله عليه وسلم–بالنفوس وسعة صدره وقدرته علىٰ تربية القلوب وإقناع العقول بالبراهين والحجج التي تندحر الوساوس ودواعي الخطيئة أمامها، وكانت النتيجة (فلم يكن بعد – ذلك الفتىٰ – يلتفت إلىٰ شيء) وإن الأمة التي تربت علىٰ هذه الأساليب الحجاجية في البيانين الكريمين لا يمكن أن تكون عقليتها بعيدة عن هذا النمط من التفكير والبيان الحجاجي.

---

(١) الحجاج في الحديث النبوي–دراسة تداولية/ د/ آمال يوسف المغامسي/ ٣٨١/ الدار المتوسطية للنشر/ ط١–١٤٣٧ه–٢٠١٦م

(٢) رواه أحمد ٥/ ٢٥٦، والطبراني في المعجم الكبير ٨/ ١٦٢، ١٨٣، والبيهقي في شعب الإيمان ٤/ ٣٦٢ (٥٤١٥)

ومن ثم فإن التراث البلاغي لم يخل من الإشارة إلىٰ الحجاج بوجه من الوجوه، نجد تلك الإشارات في المناهج البلاغية الثلاثة التي سبق ذكرها، فمنهج الجاحظ في البيان والتبيين لم يتوقف كثيرا عند الحجج الإقناعية، وأولىٰ عنايته بالإفهام والتفهيم والإرشادات التي يجب أن تتبع في الخطب والكتابة، ... محتفيا بقول العتابي: (البلاغة إظهار ما غمض من الحق، وتصوير الباطل في صورة الحق)(١)، وهذا لا يكون إلا بالحجج العقلية بوجه من الوجوه، ورضاه عن تقديم العقل في هذا الحوار يفيد إدراكه لدور العقل في إكمال النواقص الحسية، ثم اصطفىٰ مما اصطفاه في هذا المقام قول أبي علي: (رسائل المرء في كتبه أدل علىٰ مقدار عقله، وأصدق شاهدا علىٰ غيبه لك، ومعناه فيك، من أضعاف ذلك علىٰ المشافهة والمواجهة)(٢)، وهو أقوىٰ شاهد علىٰ إدراكه أهمية الإقناع في المشافهة والمواجهة.

وإذا فتشنا في التراث البلاغي في منهجي أهم إمامين: عبد القاهر الجرجاني في البلاغة التحليلية الذوقية، والسكاكي في البلاغة التقعيدية التقسيمية-سنجد أنهما أدركا مفهوم الحجاج وقوته التبليغية (من خلال مشروعهما "الاستدلال البلاغي" الذي ارتبط عند الأول بنظريته المعروفة ب "معنىٰ المعنىٰ" والتي تطورت فيما بعد علىٰ يد الثاني لتصبح دالة علىٰ "الملازمة بين المعاني".)(٣)، والاستدلال لا يهتم بالعقل علىٰ حساب العاطفة، ولا ينشغل بالعاطفة ويهمل العقل الذي هو محل اختيار الحجج المقنعة، لأنه يجمع بين (المضمون العقلي للحجة وصورها البيانية)(٤)،

(١) البيان والتبيين/ ١/ ١٨٩.

(٢) السابق/ ١/ ١٨٩.

(٣) الحجاج في البلاغة العربية من خلال نظرية الاستدلال/ د/ كمال الزماني/ ٢/ مجلة الآداب واللغات/ عدد ١٠-ديسمبر ٢٠١٩م

(٤) الحجاج والاستدلال الحجاجي/ حبيب أعراب/ ١١٠/ عالم الفكر/ ع ١/ ج٣٠/ ٢٠٠١م

والبلاغة العربية لا تعرف القياسات البرهانية الصارمة كالمنطق، وإنما تجعل من اللغة البديعة وعاء للحجج في سياق بلاغي بعضه دليل علىٰ بعض.

ثم يأتي حازم القرطاجني ويصرح بكلمة الإقناع في الخطابة في مقابل التخييل في الشعر، وحديثه عن المعاني الشعرية التي تترك في النفوس أثرا تخييليا، بينما المعاني الخطابية تعتمد أكثر علىٰ الوسائل الإقناعية(١)، وهي خطوة كبيرة للبيان عما هو أولىٰ لكل من الشعر والنثر.

وإذا رجعنا إلىٰ الخطيب في تعريفه لبلاغة الكلام بأنها (مطابقته لمقتضىٰ الحال مع فصاحته)(٢) سنجد أن مفهوم الاستدلال لا يختص بأحد علوم البلاغة وإنما يشمل علوم البلاغة كلها، مما يجعلني أقطع بما سبقت الإشارة إليه بأن البراهين الحجاجية هي أحد ركني البلاغة العربية القائمة علىٰ الإمتاع والإقناع.

وهذا كاف لتأكيد أن الإقناع الذي هو مقصود الحجاج لم يكن غائبا عن فكرنا البلاغي، وكان ملحوظا في القضية البلاغية الأساسية وهي رعاية المقام، وليس عيبا ألا يسمىٰ في تراثهم بالحجاج، بل العيب أن نفضل مصطلحا مستحدثا مترجما عن مصطلح غربي علىٰ ما هو أشمل وأرقىٰ (رعاية مقتضىٰ الحال) وهو ما كان ينبغي أن يتوسع في دراسته، وفتح جوانبه المجملة في بلاغة المؤسسين.

الوقفة الثانية: اتساق كل من الفكرتين مع اللغة التي استنبطت منها فكرة وبناء ومعايير وثقافة وبيئة وعقيدة.

---

(١) ينظر/ منهاج البلغاء وسراج الأدباء/ حازم القرطاجني/ ١٨/ ت/ محمد الحبيب بن الخوجة/ دار الغرب الإسلامي – بيروت لبنان-ط٣ ١٩٨٦م

(٢) الإيضاح في علوم البلاغة/ الخطيب القزويني/ ١/ ٤١/ ت/ محمد عبد المنعم خفاجي/ دار الجيل-بيروت لبنان/ ط٣.

الوقفة الثالثة: سعي كل من الفكرتين إلىٰ إقناع المخاطب بمختلف الحجج والبراهين التي تحمله علىٰ تغيير قناعته وتبني ما يلقىٰ عليه.

الوقفة الرابعة: رعاية كل منهما لخصوصية المخاطبين، وتنوع مشاربهم الفكرية والثقافية والمجتمعية.

الوقفة الخامسة: رعاية المقام أوسع دلالة من الحجاج، فهي من ناحية تشمل الشعر والنثر، ومن ناحية تشمل الإمتاع والإقناع، بينما دلالة الحجاج علىٰ المنازعة والمجادلة يجعله ينفرد بالدلالة علىٰ الحجج والأدلة العقلية التي ترجح رأي المتكلم وتنتصر له، وهذا أقرب للخطابة من غيرها من الفنون الأدبية، لذلك أقول: المقام في البلاغة مبدأ بلاغي واسع ومتداخل في منظومة بلاغية متكاملة تشمل: المتكلم والمخاطب والمقام والرسالة، فإن روعيت واهتم بها جميعا حسن الكلام وبلغ مبلغا في بلاغة العربية ونجحت بذلك العملية التواصلية.

الوقفة السادسة: أرىٰ أنه من سمات بلاغتنا المنسولة من ظلال البيان المعجز عدم اعتمادها علىٰ البراهين وحدها مهما علت، ولا علىٰ الحجج وحدها مهما قهرت، ولا علىٰ الأدلة وحدها مهما أعجزت، وإنما هي أسباب يؤخذ بها، ولا تنفصل بحال في العقيدة الإسلامية عن المسبب جل جلاله، فاليهود –لعنهم الله– رأوا سيدنا عيسىٰ–عليه السلام–يخلق من الطين كهيئة الطير وينفخ فيها فتصير طيرا، ويبرئ الأكمه والأبرص ويحيي الموتىٰ وهي أدلة غالبة وبراهين قاهرة، قال تعالىٰ: ﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَنِّي قَدۡ جِئۡتُكُم بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ أَنِّيٓ أَخۡلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيۡرَۢا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ وَأُبۡرِئُ ٱلۡأَكۡمَهَ وَٱلۡأَبۡرَصَ وَأُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأۡكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿٤٩﴾﴾ [سورة آل عمران:٤٩]. ومع ذلك صلبوه وقتلوه كما يدعون كذبا وبهتانا، قال تعالىٰ: ﴿وَقَوۡلِهِمۡ إِنَّا قَتَلۡنَا ٱلۡمَسِيحَ عِيسَى

ٱبۡنَ مَرۡيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمۡۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ لَفِي شَكّٖ مِّنۡهُۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنۡ عِلۡمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينَۢا ١٥٧ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيۡهِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمٗا ١٥٨﴾ [سورة النساء:١٥٧-١٥٨].

فمن فقه بلاغتنا أن الهداية من الله وحده، وأن البراهين مهما تجلت ما هي إلا أسباب لا تؤتي أكلها إلا بإذن ربها، وهذا مما لا يرىٰ في ثقافات البلاغات المادية الملحدة، أو الصليبية النفعية، أو اليهودية المتصهينة، التي تجعل من البراهين فاعلا مغيرا للحال ومبدلا للمآل، دون حساسية الجمال الإيماني، وهذا مما لا يجب أن يغيب عن الدرس البلاغي العربي.

الوقفة السابعة: سبق فكرة رعاية المقام وتجذرها تاريخيا، فمن محاسن علماء البلاغة العربية التعبير عن المقام وما يجب أن يرعىٰ فيه بقولهم الموجز البليغ (لكل مقام مقال) بهذا الجناس الناقص الذي يعين علىٰ الحفظ مع الأريحية بهذا التنغيم، وهي فكرة عربية خالصة سبقت الدراسات الغربي بمئات السنين، يقول الدكتور/ تمام حسان: (ولقد كان البلاغيون عند اعترافهم بفكرة "المقام" متقدمين ألف سنة تقريبا علىٰ زمانهم لأن الاعتراف بفكرتي "المقام" و"المقال" باعتبارهما أساسين متميزين من أسس المعنىٰ يعتبر الآن في الغرب من الكشوف التي جاءت نتيجة لمغامرات العقل المعاصر في دراسة اللغة)(١).

الوقفة الثامنة: استنباط علوم اللغة من اللغة ذاتها، وغاية أهل العلم ما وسعتهم ملكاتهم في هذا الاستنباط، فالجاحظ وسيبويه وعبد القاهر الجرجاني وابن جني وغيرهم ما جاءوا بما سطروه من عند أنفسهم، وإنما استنطقوا اللغة من جانب

(١) اللغة العربية معناها ومبناها/ تمام حسان/ ٣٣٧/ دار الثقافة-الدار البضاء-المغرب.١٩٩٤م

اختاروه فنطقت لهم وأوحت إليهم به، وهذا ما يدعو راغبي التجديد والتحديث أن يسلكوا مسلكهم ويستنهضوا همتهم فما زالت خزائن العربية بنصوصها الكريمة قرآنا وسنة، ونصوصها الإنسانية الراقية ملآنة بكنوز بكر لم تفض بعد، ومن رام بابا غير هذا بدعوىٰ الارتقاء ببلاغتنا فقد ضل الطريق وسلك شر سبيل، وقد فعلوا فما ارتقت بلاغة ولا نهضت ثقافة.

الوقفة التاسعة: معاناة البلاغة العربية من الغزو الفكري والثقافي، وتعد النظرية الحجاجية الغربية أحد أدوات هذا الغزو، وإن أشد ما تواجهه بلاغتنا العربية هو من أبناء العروبة والإسلام، ممن تستهويهم المصطلحات الغربية كما تستهوي الغلمان في الشارع الملابس النسائية الكاشفة العارية أو الشبابية المهترأة الممزقة، فلم تتغرب الأبدان إلا بعد تغرب العقول، ولم تنهزم السواعد إلا بعد أن انهزمت العقول وخجلت الأفكار. قد قضينا زمنا طويلا مستغلين بالكلاسيكية والرومانسية والواقعية، والبنيوية والتفكيكية، ثم الأسلوبية والنصية والتداولية والحجاجية، وكلما جاءت أمة لعنت أختها، ولم نقدم للأجيال شيئا، فقد عزفت الجماهير عن هذا المستنقع الذي لم يغرس نبتا صالحا، فكيف ينتظر منه ثمرٌ!

لما غزت ساحة الفكر والثقافة العربية النظرية الأسلوبية تداعت الأكلة علىٰ قصعة بلاغتنا واصفين إياها بالبلاغة القديمة وهو وصف مشين يصرف الجمهور الخاص-طلاب العلم-والعام عنها، بل طالب البعض برميها في سلة المهملات والإقبال علىٰ الأسلوبية بديلا مغلفا بثقافة غربية غريبة المنبت والمنهل.

فلما غزت الساحة النظرية الحجاجية أصبحت الساحة تمطر حجاجا كفيل بإغراق العقول وكتم الأنفاس تحت هذا السيل المنهمر، أصبحت الساحة الأدبية والبلاغية تسهل حجاجا وحجاجا، فإذا ما قارنت بينه وبين رعاية المقام وإسهامات الفكر البلاغي العربي لعجبت من هذا الشطط.

الوقفة العاشرة: إهمال الغرب بلاغته التراثية الأرسطية، فلما لم يجد فيها مصدر فكر وثقافة تناسب عصرهم ومستحدثاته طوروها وقفزوا بها قفزات يحمدون عليها، ويستلهمون في مجال الإحياء والتطوير. وأما أصحابنا الذين يأخذون عنهم كل نتاج وإن خرب تراثنا وشوه وجداننا فلم يفعلوا ولم نفعل مثل ما فعل الغربيون بأن يلتفتوا إلىٰ الفكر البلاغي وإعادة قراءته قراءة معاصرة، واستحداث مصطلحات منسولة من المصطلحات الأم، وصادرة من نبع هذه العلم الشريف، الذي لبس ثوبا واسعا فضفاضا، وعجن من عجينية صالحة للمد والمط لتغطي ما يفصل مجملها، ويشرح غامضها، ويمسك بخبيئاتها، ويملأ فوارغها التي تركها لنا المؤسسون لننشئ بها علما أنسب ببنات عقولنا المعاصرة، كما لم نلتفت إلىٰ إنشاء طرق تدريس معاصرة خاصة بها، منها ما يناسب الصغار، ومنها ما يلائم الكبار، كما لم ننشغل بمؤلفات تعليمية مناسبة نقدم من خلالها البلاغة العربية للأجيال المعاصرة، وها هي التقنيات الذكية الحديثة (الذكاء الصناعي) يحتاج مؤسسات ضخمة تقوم علىٰ إمدادها بالعلوم البلاغية وتحديثها الدائم والإفادة مما تمدنا به من نتاج يساعد علىٰ النهوض بالدرس البلاغي المعاصر.

ومن هذه الأبواب التي لم تكتمل حتىٰ وقتنا دراسة أحوال المخاطبين وتنوعها، فلكل مخاطب أحوال، وكيف تقدم له البلاغة، وكيف يخاطب بها، وهل يمكن أن يكون الإقناع وحده بعيدا عن شقيقه الإمتاع كافيا في حال، والإمتاع وحده كاف في حال آخر، ومتىٰ يجب أن يكون تواجدهما معا فرضا.

وأمامنا البيان القرآني والبيان النبوي الكريمين والإبداع الإنساني منذ العصر الجاهلي إلىٰ العصر الحديث، وهذا كفيل بمساعدتنا علىٰ أن نقدم ما يناسب كل حال، ونؤسس نظريات تكشف عن جوانب من النظرية البلاغية التراثية من المعين الذي نهلت منه وأسست عليه وله.

الوقفة الحادية عشر: تميزت البلاغة الحجاجية بأمرين يمكن الإفادة منهما، والاقتداء بمسلكهما، وهما: الكتابة المعاصرة للتراث البلاغي بحثا وتأليفا، وبخاصة في مجال الكتابة الجماهيرية التي تخاطب العامة بسهولة مناسبة للمستويات الثقافية.

والسعة الجماهيرية، أي: مخاطبة جميع شرائح المجتمع بالبلاغة العربية، والاهتمام بدورها التربوي المعين علىٰ رقي المخاطبين ذوقا وسلوكا، ونحن أمة تملك بيانا موحىٰ به وأدبا إنسانيا لا نظير له وفرة وجمالا، فمن خلال بلاغة هذين البيانين يسهل مخاطبة الجماهير علىٰ مختلف مستوياتها الاجتماعية والثقافية، وبذلك نساهم في نشر الوعي الثقافي البلاغي في الأمة طلابا وعامة.

إن فرض نظرية استقت من ماء غير مائنا خطر كبير، كل ما قدمه مَنْ غزىٰ ثقافتنا به هو الترجمة ومحاولة التطبيق المجحف والمثير للاشمئزاز علىٰ نصوصنا، مما أطفأ شمعة التفكير المعاصر، وأوقف مسيرة الإنتاج العلمي البلاغي المناسب للجماهير المتعطشة إلىٰ الماء الصافي من المعين الذي نبت منه اللحم والعظم.

أصبحت الساحة إلا ما رحم ربي تنتظر ماذا بعد، فأمس الأسلوبية واليوم الحجاجية وغدا ما بعدهما، وكأننا مثل الواقفين في طابور ينتظرون رغيف خبز من يد لم تزرع في تربتنا ولم تشأ لنا أن نزرع.

روايتا زينب وجميلة دراسة بلاغية مقارنة:

لن أستغرق طويلا في المقارنة بينهما، وإنما أقصد إلىٰ التركيز علىٰ محددات البلاغة المقارنة في مجال المقارنة بين النصوص ذات اللغتين المختلفتين، إذ لا تتحمل هذه الدراسة أكثر من ذلك.

التعريف بالمؤلفين:

مؤلف رواية زينب:

الأديب الكبير محمد حسين هيكل، روائي، وصحافي، وكاتب وسياسي مصري، وهو عند أكثر النقاد والأدباء رائد الرواية العربية، حيث تعد زينبه أول رواية متكاملة العناصر في الأدب العربي الحديث والتي تحولت فيما بعد إلىٰ فيلم سينمائي. ولد في شهر أغسطس من عام ١٨٨٨م في قرية "كفر غنام" بمدينة المنصورة بمحافظة الدقهلية شمال مصر، ودرس القانون في جامعة "السوربون" بفرنسا، ولدىٰ عودته إلىٰ مصر عمل في مهنة المحاماة وعمل بعدها في مجال الصحافة، واتصل بالمفكر الكبير أحمد لطفي السيد وتأثر بأفكاره، والتزم بتوجيهاته كما تأثر أيضًا بالشيخ محمد عبده وقاسم أمين وغيرهم من كبار المثقفين.

ويمكننا القول بأن الدكتور محمد حسين هيكل ينفرد بين أبناء جيله بأشياء حاز بها السبق والريادة، فسبق غيره في تأليف أول رواية عربية بقصته المعروفة زينب، وفتح لأصحاب القلم والبيان كتابة التاريخ الإسلامي علىٰ نحو جديد يجمع إلىٰ جانب العمق والتحليل والعرض الجميل، والأسلوب الشائق، والربط المحكم بين أحداث التاريخ. وكتب أيضًا أدب الرحلة، وسجَّل خواطره وما يجول في نفسه في كتابه الرائع في منزل الوحي، ودوَّن مذكراته السياسية، وما شاهده وشارك فيه من أحداث في كتابه مذكرات في السياسة المصرية. وحاز هذا السبق وهو غير متفرغ

للعمل الأدبي، فقضىٰ حياته كلها إما رئيسًا لتحرير جريدة أو وزيرًا في وزارة، أو زعيمًا لحزب، أو رئيسًا لمجلس الشيوخ، أو محاميًا في قاعات المحاكم(١).

ومن مؤلفاته:

له العديد من المؤلفات في مجالات متعددة: في منزل الوحي-الإيمان والمعرفة والفلسفة-الفاروق عمر-الامبراطورية الإسلامية والأماكن المقدسة-الشرق الجديد-جان جاك روسو: حياته وكتبه-حياة محمد-زينب-عثمان بن عفان-مذكرات الشباب-تراجم مصرية وغربية-مذكرات في السياسة المصرية-شرق وغرب رحلات-هكذا خلقت-الفرق بيِّن-ثورة الأدب-الدعوة الىٰ الأدب القومي المصري حتىٰ عام ١٩٣٢-ولدي.(٢)

مؤلف رواية جميلة:

جنكيز أيتماتوف أديب قرغيزي، ولد في قرية شيكر بمحافظة تلاس في ١٢ ديسمبر ١٩٢٨م، ويعد من أبرز أدباء الاتحاد السوفيتي سابقا، وقد حاز علىٰ جائزتي لينين والدولة التقديرية. وقد أعدم والده في موسكو عام ١٩٣٧م مما اضطره للعمل مبكرا وهو ابن الرابعة عشرة من عمره. وهو سياسي ودبلوماسي، فقد عمل سفيرًا للجمهورية القرغيزية في بلجيكا، الاتحاد الأوروبي، حلف الناتو واليونيسكو، وعمل صحفيا ومترجما وروائيا وكاتب سيناريو

وقد فرض نفسه بقوة عبقريته في خريطة الأدب السوفيتي في مدة وجيزة، ووضع اسم بلده علىٰ خريطة الإبداع العالمي، وهو من الأدباء الذين نالوا شهرة عالمية منذ عملهم الأول، والمتابع لرواياته يجده يولي اهتماما بالجانب الروحي والنفسي

---

(١) ينظر رواية زينب لمحمد حسين هيكل بين التأسيس والتسييس/ د/ مفقوده صالح/ ص٢٠٨ وما بعدها / ع العاشر/ مجلة العلوم الإنسانية / جامعة محمد خيضر بسكرة

(٢) ينظر السابق.

للإنسان، كما تبرز في عدد من رواياته اهتمامه الشديد بالبيئة والطبيعة، وقد حظيت رواياته بالكثير من الإطراء والتقدير، وقد تحولت رواية جميلة إلىٰ فيلم سينمائي(١)

مؤلفاته:

للأديب الكبير العديد من الروايات والقصص، منها: جميلة، المعلم الأول، ويطول اليوم أكثر من قرن، طريق الحصاد، النطع، السفينة البيضاء، ووداعا ياغولساري، الغرانيق المبكرة، شجيرتي في منديل أحمر، عندما تتداعىٰ الجبال، العروس الخالدة، طفولة في قرغيزيا، نمر الثلج، الكلب الأبلق الراكض علىٰ حافة البحر.(٢)

اتفاق وافتراق:

من دراسة سيرة المؤلفين نجدهما متشابهين في أمور كثيرة، فكلاهما نشأ في القرية وخبرا أحوال الناس فيها، وأبصرا جمال طبيعتها الساحرة، ومشيا في طرقها، مما جعل الروايتين تحفلان بالكشف عن الإنسانية القروية ولمسات الطبيعة المبهرة.

كما يتفقان في مجالات العمل والوظائف التي تقلداها سواء في السياسة والدبلوماسية أو في مجال الصحافة والكتابة. واتفقا كذلك في كونهما اطلعا علىٰ أدبين عالميين، فاطلع هيكل علىٰ الأدب الفرنسي وأعجب به واتقن لغته، بينما نشأ جنكيز أيتما توف في ظلال الأدب الروسي وأتقن لغته وكتب بها الكثير من رواياته، وترجم إليها ما كتبه بلغته القرغيزية.

ويختلفان في نشأة كل منهما فهيكل نشأ في أسرة أرستقراطية ثرية، وكانت نظرته إلىٰ الحياة تنطلق من هذا الجانب المجتمعي، أما جنكيز أيتما توف فقد أعدم والده وهو في مستهل حياته، فانخرط في العمل وعاش حياة الإنسان القروي الكادح، وهو ما

---

(١) ينظر/ تاريخ الأدب القرغيزي/ مجموعة من المؤلفين/ ٣٦/ بشكيك

(٢) ينظر/ السابق وصانعو جمهورية قرغيزستان/ ١/ آماتوف/ ١/ ٥٢ وما بعدها/ ديمي٨ ط م

جعله يهتم بتفاصيل هذه الطبقة المعدمة ويغوص في هذه الحالة الإنسانية ذات السمات المختلفة عن طبقة الأثرياء وذوي المكانة المجتمعية الراقية.

موضوع الروايتين:

زينب:

تمت الطبعة الأولىٰ من رواية زينب في عام ١٩١٤م في القاهرة، والعنوان الرئيس للرواية هو " زينب " أما العنوان الفرعي فهو (مناظر وأخلاق ريفية) وبه هرب المؤلف في ذلك الوقت من التصريح بالتسمية الأنثوية (زينب) حتىٰ لا يتهم بأنه ارتكب ذنبا لا يغتفر في التأليف لرواية موضوعها عن الحب (١)

والعنوان الفرعي له مكونان: مناظر وأخلاق وقدمت المناظر أي الحديث عن الطبيعة علي الأخلاق وهو الجانب الإنساني، ليتسق ذلك مع مضمون روايته التي مثلت الطبيعة فيها في مساحة أوسع من النصوص التي تناولت الجانب الإنساني(٢).

واتساقا مع ذلك أيضا لم يوقع باسمه، وإنما ب (مصري فلاح) فقدم هذه الطبيعة الوطنية المصرية علىٰ الصفة الطبقية أو المهنية، اهتماما بالوطنية وتقديما لها عما سواها، وخشية منه من أن تؤثر هذه الرواية علىٰ مكانته المهنية والسياسية والاجتماعية، إذ المجتمع آنذاك لا يتقبل من مثله كتابة هذه الرواية ذات الموضوع العاطفي، ولا يقبل منه تضييع وقته في الكتابة القصصية التي كانت تقرأ لملء الفراغ وتضييع الوقت(٣).

---

(١) ينظر/ فجر القصة المصرية/ يحيىٰ حقي/ ٤٧/ الهيئة المصرية العامة للكتاب/ القاهرة ١٩٨٧م

(٢) ينظر/ محتوىٰ الشكل في الرواية العربية/ سيد البحراوي/ ١١٧/ الهيئة المصرية العامة للكتاب/ القاهرة ١٩٩٦م

(٣) ينظر/ فجر القصة المصرية/ يحيىٰ حقي/ ٤٧/ الهيئة المصرية العامة للكتاب/ القاهرة ١٩٨٧م

ومثله فعل في إهدائه قائلا: (إلىٰ مصر وإلىٰ هذه الطبيعة الهادئة المتشابهة اللذيذة، إليك يا مصر ولأختي أهدي هذه الرواية من أجلك كتبتها وكانت عزائي عن الألم...) فالوطن والطبيعة المصرية الخلابة ذات مكانة كبيرة عنده جعلت مكانتها مقدمة علىٰ غيرها من العلاقات أو الروابط الأخرىٰ حتىٰ ولو كانت رابطة الأخوة، وهو ما نجده في الرواية ماثلا في نصوصها الواصفة جمال الطبيعة وسحرها، فما يترك الحديث عنها حتىٰ يعود إليها ما وجد إلىٰ ذلك سبيلا.

وأحداث الرواية تدور حول الحديث عن الفتاة (زينب) وهي فلاحة في ربيع عمرها تحب إبراهيم وترتبط به، ثم تشاء الأقدار أن يوافق والدها علىٰ تزويجها إلىٰ حسن الذي يخدم في الجيش، وهو أعز صديق لحبيبها ومن خلال حياة البطلة زينب المأساوية، أظهر لنا الكاتب صعوبة عيش أهل الريف إبان الاستعمار والجهل والظلم اللذين عايشتهما زينب بتزويجها دون رضاها.

وأما حامد فهو يمثل الكاتب ودوره يقوم علىٰ رواية القصة، ويحكي عن زينب ولا يتكلم بلسانها. فتتزوج زينب من حسن وما كان علىٰ الحبيب إلا الرضوخ للأمر الواقع المفروض عليهما فزينب لا يمكنها الاعتراض ولا إبراهيم أيضا، حيث إن حسن هو أعز أصدقائه، فحزنت زينب لبعد إبراهيم عنها ومضت الأيام إلىٰ أن اكتشفت بأنه سيسافر إلىٰ السودان ومن هناك راسل والديه وأخبرهما بأنه يعيش بأمان وأنه نسي أيام الماضي الأليمة.

وتمضي الأحداث إلىٰ أن بدأ مرض عضال ينهش جسم زينب ويستنزف ريعان شبابها، زينب التي لم تتحمل فكرة ابتعاد إبراهيم وهجرته إلىٰ بلد آخر، وبعدما ازداد حالها سوءا، أحضروا لها طبيبا فأخبرهم بأنه لا أمل من شفائها لأن المرض قد بلغ أشده، وفي لحظاتها الأخيرة طلبت زينب من أمها أن تأتيها بمنديل ابراهيم فقبلته ووضعته علىٰ صدرها، وكانت آخر كلمة قالتها: إنها تريد أن يدفن معها، كل هذا في

حضور حسن زوجها الذي كان يتأملها في حالة من اليأس، وفي وسط الليل أقفلت زينب عينها لآخر مرة وارتفعت صرخات أمها وحسن في أعماق السكون.

إنها نهاية حزينة حقا، تترك في نفس قارئها حزنا عميقا علىٰ حبيبين لم يتمكنا من اللقاء الذي يغمرهما سعادة وبهجة، فالحبيب سافر والحبيبة سافرت أيضا، ولكن إلىٰ الحياة الآخرة، وهذا المشهد جعل للرواية تأثيرا رغم كونه مؤلما إلا أنه جزء مهم في الدرامة(١).

جميلة:

رواية «جميلة» الصادرة عن دار الساقي/ بيروت بترجمة هاف اليوسف، تبدأ من إصدار قرار الحكومة بقيام النساء بأعمال الرجال الذين ذهبوا إلىٰ الحرب، فتضطرهم الحاجة إلىٰ مَن يقوم بتوصيل الحبوب بالعربة إلىٰ القطار، حينئذ يهتدي أورزمات رئيس العمال إلىٰ زوجة صادق (جميلة) والذي مكث معها أربعة أشهر ثم تركها وذهب إلىٰ المعركة، لكن الأم ترفض خوفا عليها من الذئاب البشرية، إلا أنه يطمئنها بعدما وجد الحل في أن يقوم الغلام أخو زوجها سعيد، الذي تدعوه جميلة دوما بـ(كيتشيتي بالا) أي الولد الصغير أو تناديه بـ(سلفي) بمرافقتها في العربة.

ثم تظهر الشخصيات الرئيسة: جميلة وسعيد والفتىٰ القروي دانيار، فمنذ نشأتها يتيمة مع أبيها اكتسبت جميلة الملامح الصارمة، فهي ابنة وحيدة لأبيها، وكانت ترعىٰ القطعان معه، لهذا أضفت علىٰ سلوكها وطباعها سمات رجولية، وبعد زواجها بصادق ذهب إلىٰ بيت حماتها، ومنذ أوَّل يوم أظهرت شخصيتها غير القابلة للترويض مع جاراتها، اللاتي اشتكين من فظاظة سلوكها، وإن كان هذا أعجب أم زوجها، والتي رأت في جميلة ندّا لها، فعاملتها معاملة جيدة، وعندما كانت تخرج إلىٰ القرية يلفت جمالها انتباه الشباب، فأخذوا يتحرشون بها إلا أنها كانت تصدهم بلسانها تارة

(١) ينظر/ رواية زينب/ محمد حسين هيكل/ دار النفيس/ القبة الجزائر ٢٠٠٢م

وبيدها تارة أخرىٰ، وهو ما جعل عثمان الثمل أحد أقرباء زوجها يحنق عليها، وعندما حدث ما حدث بعد هروبها مع دانيار غريب القرية العائد من الحرب بلا أهل، اتخذها فرصة ليدنس شرفها، ويتحدث عن منظومة القيم ونسق الأعراف التي خرقتها جميلة(١)

ويبدو أن المؤلف استلهم شخصية الراوي سعيد الفتىٰ الصغير العامل من واقع حياته، إذ عمل في طفولته في المزارع بعد وفاة والده الكاتب المرموق.

وكان للطبيعة الخلابة مساحة كبيرة في نص الرواية، فقد أفاض في وصف معالم القرية وجمالها والجبال والسهول، والعادات والسلوكيات التي كان منها: عدم ترك الزوجة الأرملة بيتها، وإن الغائب لا يستطيع أن يبدأ رسالته لحبيبته وزوجته قبل أبيه وأمه، ومنع رئيس الكولخوز رعي الماشية في حقل البرسيم، ومنها العرف الذي يعتبر الفتاة التي تهرب مع غريب امرأة تستحق القتل، لأنها لوّثت شرف العائلة.

ثم تتجه القصة إلىٰ النهاية التي تمثل صدمة للدين والعادات، فقد ارتبطت جميلة بدنيار الذي ينتمي إلىٰ قرية مجاورة، وإن كان الأهالي اعتبروه مواطنا أصيلا من قرية (كوركوريو) بعدما فقد أهله وهو صغير فتربىٰ يتيما وظلّ يتنقل لثلاث سنوات من بيت إلىٰ آخر ثمّ رحل عند الكازاخ، وصار ابن الحياة التي شردته في شتىٰ أصقاع الأرض.

ثم بدت منه النظرات الخفية إلىٰ جميلة والتي بادلته حبا بحب وشوقا بشوق، وقد حرمت من مثل ذلك تجاه زوجها صادق، الذي أكدت الأخبار أنه يعالج في مستشفىٰ (ساراتوف) وسيعود قريبا.

(١) ينظر/ رواية جميلة/ جنكيز ايتماتوف/ ترجمة هاف اليوسف/ دار الساقي/ بيروت

لكن صوت الحب كان أعلىٰ، وداعيه صار أقوىٰ، ولم تستطع مقاومته واستسلمت، وهربا تاركين الماضي وراء ظهريهما، ولم يكن قدر الحب مصير جميلة ودانيار فقط، فقد تورط الغلام أيضا بحب جميلة، وقد أدرك هذا عند رحيله وإن كان يصفه بأنه حبه الأول وكان حبا طفوليّا(١).

خاتمة صادمة لكل متابع للقصة، فقد خالفت الأعراف وعادات المجتمع المسلم، مما جعل الكثير يقفون مشدوهين من هول الجريمة التي ارتكبها العاشقان، وحينما كنت أدرسها للطلاب في جامعة قرغيزية وجدت من الطلاب موقفا منها، فلما سألتهم عن سر هذا الموقف النافر كانت إجابتهم بأنها قصة منحرفة عن ديننا وعقيدتنا، فبينت لهم أن هذه الخاتمة ناقوس خطر للمجتمع القرغيزي المسلم بأن ينتبه الرجل للأسرة، وأن يكون له حضور في قلب الزوجة ووجدان الأولاد حماية لهم من وساوس شياطين الإنس والجن، ولعل هذا هو سر بقائها حية نابضة آسرة رغم مرور السنين.

تشابه واختلاف الروايتين:

دارس الروايتين يقف على الكثير من العناصر الفنية التي تجمع بينهما، ومن ذلك:

- موضوع الروايتين الذي جعل من عاطفة الحب ميدانا لهما، وقد كانت التسمية غاية في التناسق مع مضمون العملين الأدبيين الكبيرين، وارتباط البطلتين بحبيبين غير زوجيهما.
- وصف الطبيعة القروية الساحر بكل تفاصيلها.

---

(١) رواية جميلة أجمل قصة حب في العالم/ ممدوح فراج النابي/ صحيفة العرب/ ١٧/ العدد ١٠٠٦٩ لندن/ ٢٠١٥م وينظر/ أبطال جنكيز أيتماتوف في قلوب القراء/ ر. أبدولايفا ون. ماساليفا/ ١٩-٣٩/ بشكيك ٢٠٠٩م وتصورات الأبطال لمؤلفات جنكيز أيتما توف/ مقالات أدبية/ ١٠٢/ مطبعة تورارا بشكيك ٢٠٠٨م

- إظهار قسوة الحياة الريفية.
- تشابه أبطال القصة فعند هيكل زينب، وهنا جميلة، وهنا الشاب حامد الذي يمثل الكاتب يروي حكاية زينب ويتعلق أحيانا بها، وفي جميلة الفتىٰ سعيد الذي استوطن قلبه حب جميلة وهو مستمد من حياة الكاتب وسيرته الذاتية

وهذا التوافق ربما لم يكن عفويا، فمن المرجح تأثرهما برواية (هلويز الجديدة) للأديب الفرنسي المشهور جان جاك روسو، وبخاصة أنهما كانا يتقنان اللغة الفرنسية(١)، كما لا يستبعد أن يكون جنكيز أيتماتوف قد سمع برواية زينب فتأثر بها.

واختلفت الروايتان في جانبين:

- الراوي في زينب من أسرة أرستقراطية، وهذه الحياة الراقية ذات تأثير في نظرته للحياة والعلاقات الإنسانية والطبقية، وأما راوي جميلة فهو فتىٰ صغير شقيق زوجها وهي أسرة فقيرة جعلته أقرب للقصة وأحداثها.
- نهايتا الروايتين اللتان تمثلان تنبيها للمجتمع بأن يراعي المرأة وكينونتها وضرورة الاستماع لها وتقبل اختياراتها وقراراتها، وهي في زينب قاسية ولكنها مقبولة اجتماعيا، بخلاف نهاية جميلة المخالفة للأعراف والتقاليد، فهي أشبه بصدمة عنيفة أطلقها المؤلف في وجه قارئيه.

بعد هذه النظرات العامة تنتقل البلاغة المقارنة إلىٰ ما تختص به كل رواية من سمات بلاغية وصور كلية وألوان بديعية، والمقارنة بينها قلة أو كثرة، فقد تكون الاستعارة في إحداهما غالبة، لتكشف أسرارا لا يمكن لغيرها كالتشبيه والكناية أن تقوم بها، وقد تكون الكناية في الأخرىٰ قاطرة لعدم التصريح بمعان لا يمكن التصريح بها، إما لأسباب مجتمعية وإما لأسباب سياسية. وقد يكون للطباق والمقابلة

(١) من الراجح تأثر صاحب رواية زينب بالأديب الفرنسي في روايته المذكورة/ ينظر/ نصوص مختارة من قصاص العرب المعاصرين/ فريد غازي/ ١٦/ منشورات الديوان التربوي ١٩٦٠م

البلاغيين حضور في سياق واحدة، والمقابلات المعنوية تواجد في الثانية، ودور البلاغة المقارنة تبيين ذلك وذكر أسبابه.

وأن يتلبث أمام المقدمة والصورة الكلية التي استهل بها كل كاتب، ثم فصول الرواية، فإذا اتفقا في فصل فليقارن بينهما، وإذا انفرد أحدهما بفصل فليذكر سبب ذلك، وأثره في السياق الكلي للرواية التي اختصت به، ثم ينظر في الخاتمة، ومناسبتها لموضوع الرواية، وما اشتملت عليه من ألوان بلاغية تزيد المعنىٰ ألقا، والختام أثرا أعمق.

لمة وريقات:

إنني لا أطالب الدرس البلاغي المعاصر أن يتقوقع علىٰ نفسه، وأن يغلق الباب في وجه كل وافد جديد، وإنما أدعو للانفتاح المحسوب، والمواجهة المدروسة، والتسلح بالتمكن من تراثنا البلاغي بصفة خاصة، والنقدي بصفة عامة، ثم اتباع المنهج البلاغي المقارن وفق المعايير التي سبق بيانها، حينئذ ستشرق شمس البلاغة، وينير وجهها الوضاء، وستقدم هذه الدراسات المقارنة منافع عدة، منها:

١- الثقة في تراثنا البلاغي الشريف.

٢- إدراك سعة الثوب البلاغي الفضفاض.

٣- تلمس الخبيئات التي تركت لبناء كل جيل لبناته في هذه النظرية الشاملة.

٤- ملء الفراغات التي تركت في بناء النظرية البلاغية العربية بما توحي به النظريات الحديثة؛ ليكون هذا الملء ولوجا إلىٰ أبواب بحثية حديثة تناسب كل مصر وعصر.

٥- تجديد البلاغة من داخلها، وتطوير درسها البلاغي من مادتها، والارتقاء بمناهجها من بنيتها التي تكونت علىٰ مدار عصور عديدة بعقول جبارة أنشأت هذه المدارس البلاغية العديدة.

٦- المحافظة علىٰ تراث بنته عقول ارتادت حديقة البيان القرآني الكريم ودوحة بيان الحديث الشريف وبستان الشعر العربي الوفير.

٧- بقاء جدار الهوية العربية الإسلامية حائط صد أمام الغزو الفكري والثقافي الذي يعقب نجاحه الغزو العسكري القميء.

٨- متابعة كل جديد وبيان أوجه الاتفاق والاختلاف بينه وبين تراثنا البلاغي الماجد.

٩- بناء عقول ناقدة، قادرة علىٰ التحليل والتعليل والمقارنة.

١٠- فتح باب بحثي يسهم في تجديد روح البحث البلاغي المعاصر.

وسنقبض اليد من هذه الدراسات المقارنة علىٰ أن البلاغة من أهم خصوصيات اللغات والثقافات، وأنها نتيجة تطورات كبيرة ثقافية وحضارية ومجتمعية، وأن البلاغة العربية نشأت لما نزل الوحي الكريم فأحدث تغييرا هائلا في المجتمع العربي علىٰ وجه الخصوص ثم في العالم كله علىٰ وجه العموم، وأصبحت البلاغة العربية بهذا بلاغة عالمية قيمة علىٰ بلاغات اللغات جميعا، وقد رأينا أن مؤسسيها كالإمام العظيم عبد القاهر الجرجاني ليس عربي الأصل، والإمام الكبير السكاكي ليس عربي الأصل والخطيب القزويني ليس عربي الأصل، وهذا خير شاهد علىٰ فقههم أن علم البلاغة ليس مقصورا علىٰ الجنس العربي الأصل، لكونه نشأ في ظلال القرآن الكريم وتحت رايته، وهو رسالة الله للعالمين.

والذي حذرت منه وأحذر هو الحكم علىٰ البلاغة العربية بالجمود وعدم قابلية التجديد وضرورة بذل الجهد في سبيل تنحيتها، أو فرض تجديد ما من خارجها، بل إن البعض طالب بإعلان موت البلاغة العربية، وإحلال النظريات المستحدثة

مكانها(١)، وما هذا إلا غزو فكري وثقافي، لم يكلف نفسه عناء المقارنة الجادة بين النظرية البلاغية بشمولها وتعدد مناهجها قديما وحديثا – وبين النظريات الوافدة، وما يمكن الإفادة منه في تجديد الأبواب أو المناهج البلاغية.

وإن تلاميذ من اتهموا السكاكي بمنطقة البلاغة وفلسفتها ها هم يدعون إلىٰ النظرية الحجاجية ويطالبون باتخاذها بديلا لبلاغتنا القيمة، لما تشتمل عليه النظرية الحجاجية من براهين عقلية صارمة تقوم عليها، وتعتمدها في مخاطبة الجماهير، فما دام الهوىٰ غربيا فلتفتح الأشرعة مهما كانت العواقب مدمرة لتراث الأمة الثقافي والحضاري.

إننا حينما نغرق الساحة بترجمة النظريات الغربية ونقدم النشاط الثقافي الغربي ومنه النشاط البلاغي للأجيال التي ما تزال غضة في صورة حسنة مثالية، وفي مقابل ذلك نبرز الخمول الثقافي العربي، ونتهم علماءنا بالجمود والتخلف، وتراثنا بالرجعية–فيحدث بذلك أمران خطيران للغاية: إيهام الجيل أن التراث العربي الثقافي والعلمي انتهىٰ ومات بلا رجعة. والثاني: أن الثقافة الغربية والنظرات البلاغية المستوردة هي الأمل الذي يرجىٰ منه علم جديد وثقافة جديدة، ومن هنا يحقر طالب العلم ثقافة أمته وينصرف عنها، وينقطع الجيل عن أهم علوم القرآن الكريم.

وختاما لهذا المبحث أؤكد علىٰ أن منبع حضارة الأمة وثقافتها واحد، إنه نور التوحيد المنبعث من الكتاب والسنة، وإن ثقافتنا تشرق في دنيانا فتضيء لنا سبل الحياة أو تضعف وتنحسر بقدر استمداد أهل كل عصر ومصر ثقافتهم من هذا المنبع الصافي، فمتىٰ اكتملت العلاقة به كلما نهضت الأمة حضاريا وثقافيا، ومتىٰ ضعف الارتباط به وخمل التواصل معه وتذبذبت الصلة بين الأمة وبينه–تتخلف الثقافة

(١) ينظر/ سقوط البلاغة/ منذر عياش/ ٢٢/ عدد٦٧/ مجلة البحرين الثقافية – يناير ٢٠١٢م

وتتراجع الحضارة، ويعيش المثقفون في تيه حتىٰ ترجع الأمة يوما إلىٰ مصدر النور فتستمد قوتها وتسترد عافيتها الحضارية والثقافية، وتلك خصوصية قدرت لهذه الأمة الخيرة(١).

(١) ينظر/ كيف نكتب التاريخ الإسلامي/ محمد قطب/ ٢١/ دار الشروق-ط١-١٤١٢ه-١٩٩٢م

الخاتمة:

بعد الحمد لله الكبير المتعال الذي وفقني لإتمام هذه الدراسة التي طوفت فيها حول أمور عديدة، ومحاور بحثية مهمة، حول الغزو الفكري والثقافي الذي قلب المجتمعات المسلمة رأسا علىٰ عقب، وانحرف بها في أهم أمورها، وهو الانحراف عن التراث ذي الدور العليِّ في بعث خيرية الأمة كلما همدت، وإشعال توهجها كلما انطفأت، ولا أخفي سرا أني شعرت بانزعاج شديد بل بألم تسرب إلىٰ أعماقي بما لمسته في هذه الدراسة من بعد الشقة عن جادة الصواب، وبما يكابده كل دارس وكل باحث في سراديب التأثير الخطير للغزو الفكري الذي يراد له أن يحتل الأرض والعرض، والذي يخفف وطأة هذه المشاعر السلبية أن الميدان لا يخلو من خير يستنبت في قلوب حية، ونفوس عازمة، وعقول قادرة علىٰ بعث ما انعزل عن الساحة الثقافية والعلمية أو دبر له لينعزل-من تراث الأمة علما وثقافة وحضارة ووعيا ونورا تجلت به كلمات الله، وقد توصلت هذه الدراسة إلىٰ نتائج كثيرة، منها ما يأتي:

- الغزو الفكري والثقافي في العصر الحديث امتداد للشبهات التي عالجها البيان القرآني، ووسم أربابها بالسفهاء والمستهزئين والمرجفين والشياطين.
- أخطار الغزو الفكري والثقافي لم تقتصر علىٰ جانب واحد، وإنما شملت علوم الإسلام واللغة والأحداث التاريخية بصفة عامة والبلاغة العربية بصفة خاصة.
- خلق الغزو الفكري والثقافي جيلا يهوىٰ كل ما يتساقط من علىٰ موائد الغرب وما يلقيه في القمامة، وأدىٰ هؤلاء الفئة دورا كبيرا في تشويه التراث العربي والإسلامي وإضعاف حركة الفكر العربي المرتبط بالتراث العربي.
- اتجه الغزو الثقافي إلىٰ إضعاف اللغة العربية وإحلال العامية بديلا عنها، ونتيجة هذه الغزوة الثقافية توقف النتاج الأدبي الذي تزدهر به البلاغة العربية وتتوهج.

❁ إغراق السوق الثقافي بترجمة النظريات المستوردة المنسوجة من خيوط لغة غير لغتنا وثقافة غير تراثنا- نوع ناعم من الغزو الثقافي.

❁ البلاغة المقارنة بين البلاغة العربية أو باب من أبوابها ونظرية غربية، أو بين نص عربي وآخر من لغة أخرىٰ وثقافة أخرىٰ هي الدرس البلاغي المعاصر الذي يكشف عن أصالة بلاغتنا وقوتها وسعتها وجدارتها بالاهتمام والتقدير.

❁ البلاغة المقارنة هي الدراسات الأجدر بالمساهمة في تجديد المناهج البلاغية والارتقاء بها بما تفيده من النظريات البلاغية الأخرىٰ بما يفصل مجملها ويبين غامضها ويكشف عن خبيئاتها.

❁ الدراسات البلاغية المقارنة مجال بكر يجب أن تكون له ضوابط أو معايير، ولعلني أذكر بعضها فيما يأتي:

- دقة اختيار العنوان، فهو براعة استهلال للدراسة، ويجب ألا يحيف علىٰ أي من الدراسات المقارن بينها.
- التمكن من علوم البلاغة ومناهجها في مصادرها القديمة والحديثة.
- الإحاطة بالنظرية الغربية المراد مقارنتها بالتراث البلاغي أو أحد أبوابه.
- المعرفة بخلفية النظرية المقارنة بالبلاغة العربية، فالدراسات الغربية تبدأ فلسفية ثم تنتهي إلىٰ علوم ممنهجة، وسيظل الأثر الفلسفي كامنا خلف البناء الكلي للنظرية، وإذا لم نحط بها خبرا ستتسرب هذه الفلسفات المادية أو الإلحادية إلىٰ المتلقين، ومن ثم يصبح المترجم والباحث المقارن مناديا بها ومقاتلا من أجل تبني المجتمع العربي المسلم لها.
- استقراء جوانب الموضوع المطروح للمقارنة وتقسيماته الىٰ محاور وتوضيحها لغة واصطلاحا.

- امتلاك مهارة النقد والمقارنة بين النظريتين أو الموضوعين المطروحين للدراسة المقارنة.
- القدرة علىٰ دراسة النظريتين دراسة نظرية وتطبيقية.
- توضيح المعايير الإنسانية المشتركة بين ثقافة أصحاب النظريتين العربية والغربية.
- بيان أوجه التباين بين ثقافة أصحاب النظريتين.
- اختيار ترجمة صادقة ودقيقة للنظرية الغربية المرادة.
- طلب المساعدة أو المشاركة البحثية ممن يوثق فيهم من أهل اللغة الأم لأصحاب النظرية ما أمكن.
- التطبيق الحذر لنتائج الدراسة التي اتفقت حولها البلاغة العربية والنظرية الغربية علىٰ النصوص العربية بصفة عامة، ونصوص الوحي الكريم بصفة خاصة.
- حسن اختيار النصوص الأجنبية التي ستقام المقارنة بينها وبين النصوص العربية، بأن يكون الموضوع واحدا، والترجمة موثوقة.
- التوازن في تناول كل نظرية، فلا تغلب دراسة أخرىٰ.

❁ مراعاة المقام أساس تواصلية البلاغة العربية، ويتسع بابها ليشمل ما يمتع من محاسن اللغة وجماليات بلاغتها، وما يقنع من الحجج التي لا تخلو من لمسات إيمانية أو تربوية أو إنسانية، وهذا ما يجعلها أقرب رحما للتناول البلاغي التحليلي للنصوص العربية من النظرية الحجاجية التي تغلب عليها اللمسة الحجاجية العقلانية دون رعاية الجوانب التي مزجت بها في نصوص العربية وبخاصة البيانين الكريمين.

❁ سبقت نظرية رعاية المقام النظرية الحجاجية بمئات السنين، وهذا كاف في البرهنة علىٰ حيوية الفكر العربي، وخصوصية البيان العربي الذي أوحىٰ لتلك العقول المؤسسة لعلوم العربية والإسلام بهذه الدروس البلاغية الدقيقة.

❁ شمول رعاية المقام لكل من المنظوم والمنثور علىٰ السواء، بخلاف الحجاج الذي أولىٰ اهتمامه بالخطابة ودار في فلكها أكثر من غيرها.

❁ جمعت رعاية المقام بين جمال اللغة وأسرار بيانها وبين البراهين الحجاجية، بينما كان الاهتمام الأكبر في النظرية الحجاجية للبراهين العقلية.

❁ من فقه بلاغتنا أن الهداية من الله وحده، وأن البراهين مهما تجلت ما هي إلا أسباب لا تؤتي أكلها إلا بإذن ربها، وهذا مما لا يرىٰ في ثقافات البلاغات المادية الملحدة، أو الصليبية النفعية، أو اليهودية المتصهينة، التي تجعل من البراهين فاعلا مغيرا للحال ومبدلا للمآل، دون حساسية الجمال الإيماني، وهذا مما لا يجب أن يغيب عن الدرس البلاغي العربي.

❁ رعاية المقام تولدت في الفكر البلاغي باستنطاق البيان العربي، ومن ثم يجب ألا تجنب ليحل محلها ما استنطق به بيان آخر، حيث يؤدي ذلك إلىٰ قصر النظر ونقص التحليل وتشوهه، فالنظرية المستوحاة من بيان إذا طبقت علىٰ بيان أعلىٰ وأوسع كالبيان العربي ستكون الدراسة مهجنة ومشوهة وناقصة، وهذا يبرق خلف كل دراسات تحليلية طبقت هذه النظريات الغربية علىٰ البيان العربي.

❁ لا يمنع هذا الموقف من النظريات الغربية أن نقدم واجب الشكر والاحترام لهذا المجهود الكبير الذي به تقدمت الدراسات الغربية وقفزت بالحجاجية قفزات كبيرة، فلكل مجهود ثمرات تذكر وتشكر.

❁ يجب أن تفيد الدراسات البلاغية العربية المعاصرة من هذه المجهودات التي قدمتها الأمم الأخرىٰ في سبيل الارتقاء ببلاغتنا من حيث المناهج العلمية والكتابة المعاصرة وطرق تقديمها لطلاب العلم بصفة خاصة وللجمهور بصفة عامة.

❁ البلاغة المقارنة تختلف عن البلاغة التحليلية الذوقية في علاقتها بتحليل النصوص، لما للبلاغة التحليلية من صلة عميقة بثقافة النص ودلالته وإيحاءاته ووسائله التربوية، ومن ثم لا يجب أن تفرض عليه نظريات ولدت من أرحام نصوص وثقافة مغايرة، بينما للدراسة البلاغية المقارنة صلة بكل ما بين النصوص أو النظريات من أوجه اتقاف أو اختلاف وتباين.

❁ علوم اللغة تستنبط من اللغة، وغاية أهل العلم ما وسعتهم ملكاتهم في هذا الاستنباط، وهذا ما يدعو راغبي التجديد والتحديث أن يسلكوا مسلكهم ويستنهضوا همتهم فما زالت خزائن العربية بنصوص الوحي الكريم، ونصوصها الإنسانية الراقية ملآنة بكنوز بكر لم تفض بعض، ومن رام بابا غير هذا-وقد فعلوا- فما قدم ما ارتقت به بلاغة ولا ما نهضت به ثقافة.

❁ يتوجب تقدير من خدم لغته وارتقىٰ بثقافته، وأحيا نظرية قومه القديمة أو ثور جانبا غاب عن ساحته، وليس معنىٰ هذا أن تستبدل بلاغتنا بكل ما يظهر علىٰ الساحة كل يوم، وإنما يجب أن ينظر فيما بين البلاغتين من اتفاق أو اختلاف، ثم يتلبث أمام ما يساعد في فهم غامض في تراثنا أو يفصل مجملا، أو يظهر خبيئا، لتتسع الدراسات وتتلاقىٰ الثقافات علىٰ طاولة البحث الأمينة سلوكا، القويمة منهجا.

❁ لا تدعو الدراسة إلىٰ الانغلاق وإنكار مميزات الحضارات الأخرىٰ، فهذا بلا شك موت للفكر، وضمور للعقل، وتخلف علمي وعسكري واقتصادي، وإنما يجب أن نقف موقفا بصيرا، يرىٰ أن العالم ليس حضارات منعزلة، يمكن لكل حضارة الاكتفاء بذاتها، وإنما يجب أن نبصر في الحضارات ما هو عام مشترك، وما هو خاص

بكل ثقافة وحضارة، فنجتهد في دراسة العام وتحصيله والإفادة من ثمراته، والمساهمة في تطويره والارتقاء به لصالح الإنسانية؛ لتكون لنا اليد العليا. وأن كون جنودا حارسين لخصائص حضارتنا الخاصة، ومنها لغة الإسلام وروحها بلاغتها، فلا تنام لنا عين، ولا يرف لنا جفن

وبعد:

فإني أوصي بفتح باب هذه الدراسات البلاغية المقارنة، وأن يوجه كل باحث يريد الترقي من مكانة علمية إلىٰ أخرىٰ أن يكون له غرس في هذا المجال لما له من فوائد عديدة تعود عليه أولا ثم علىٰ البحث البلاغي ثانيا بالنفع العلمي، وليكون المجتمع العلمي البلاغي درعا يحافظ علىٰ ثقافة الأمة وتراثها وتنميته وازدهاره مرة أخرىٰ.

ومما أوصي به في مجال الدراسات المستقبلية: دراسة تأثير البلاغة المقارنة علىٰ الإعلام المعاصر. تحليل أثر البلاغة المقارنة في تعزيز القيم الأخلاقية عبر النصوص الدينية والفلسفية. تطوير مناهج أكاديمية لدراسة البلاغة المقارنة تشمل التطبيقات المختلفة.

هذا..

وما يكون من فضل وتوفيق فمن الله وحده، وما يكون من زلة ووهن فمن النفس والشيطان، سائلا ربي العفو والغفران. وصلىٰ الله وسلم علىٰ حبيبه المصطفىٰ وعلىٰ آله الكرام.

المصادر والمراجع:

١. **أبطال جنكيز أيتماتوف في قلوب القراء**، ر. أبدولايفا ون. ماساليفا، بشكيك ٢٠٠٩م

٢. **الإيضاح للخطيب القزويني**، دار الجيل بيروت-١٩٩٣م

٣. **البرهان في وجوه البيان**، ابن وهب، دار الكتب العلمية – بيروت لبنان ١٩٨٢م

٤. **البلاغة تطور وتاريخ**/ دار المعارف/ ط٢.

٥. **البلاغة الجديدة (النظرية الحجاجية) عند بيرلمان-محاولة تأصيل**/ نور الدين بوزناشة/ جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية.

٦. **البلاغة العربية والتداولية الغربية بين الثابت والمتغير-دراسة بلاغية نقدية**/ د: شحاتة عبد الرازق أبوشوشة/ مجلة كلية الدراسات الإسلامية والعربية بالإسكندرية، ٣ مارس ١٤٤٤هـ – ٢٠٢٣م

٧. **البلاغة المفترى عليها بين الأصالة والتبعية**، د: فضل حسن عباس، دار الفرقان، ط٢، ١٤٢٠ه-١٩٩٩م.

٨. **البلاغة والأسلوبية –نموذج سيميائي لتحليل النص**، همريش بليت، ترجمة محمد العمري، أفريقيا الشرق-المغرب، ١٩٩٩م

٩. **البيان العربي**، مكتبة الإنجلو المصرية-ط٢-١٩٨٥م

١٠. **البيان والتبيين**، الجاحظ، دار ومكتبة الهلال، بيروت- ١٤٢٣ هـ

١١. **التحرير والتنوير**، الطاهر بن عاشور، الدار التونسية للنشر – تونس- ١٩٨٤ هـ

١٢. **التحفة البهية والطرفة الشهية**، دار الآفاق الجديدة-ط١- ١٤٠١ه-١٩٨١م

١٣. **تاريخ الأدب القرغيزي**، مجموعة من المؤلفين، بشكيك

١٤. **تصورات الأبطال لمؤلفات جنكيز أيتما توف**، مقالات أدبية، مطبعة تورارا بشكيك ٢٠٠٨م

١٥. **تفسير القرآن العظيم**، ابن كثير، ٤/ ٢٨٠، دار الكتب العلميو بيروت لبنان، ط١-١٤١٩ه-١٩٩٨م

١٦. **تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان**، عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي، ت: عبد الرحمن بن معلا اللويحق، مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤٢٠هـ -٢٠٠٠ م

١٧. **الثقافة الإسلامية والحياة المعاصرة**، محمد خلف الله، مؤسسة فرانكين-القاهرة ١٩٦٢م

١٨. **الجامع لأحكام القرآن**، القرطبي، ت: أحمد البردوني، وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية-القاهرة، ط٢-١٣٨٤ه-١٩٦٤م.

١٩. **جامع البيان عن تأويل آي القرآن**، ابن جرير الطبري، ٣٩٩ ت: د: عبد الله بن عبد المحسن التركي، دار هجر-القاهرة مصر، ط١-١٤٢٢ه-٢٠٠١م.

٢٠. **الحجاج بين المنوال والمثال**، د: علي الشبعان، مسكلياني للنشر والتوزيع-تونس.

٢١. **الحجاج في البلاغة العربية من خلال نظرية الاستدلال**، د: كمال الزماني، مجلة الآداب واللغات، عدد ١٠-ديسمبر ٢٠١٩م

٢٢. **الحجاج في الحديث النبوي-دراسة تداولية**، د: آمال يوسف المغامسي، الدار المتوسطية للنشر، ط١-١٤٣٧ه-٢٠١٦م

٢٣. **الحجاج والاستدلال الحجاجي**، حبيب أعراب، عالم الفكر، ع ١/ ج٣٠/ ٢٠٠١م

٢٤. **الحجاج في الشعر العربي القديم من الجاهلية إلى القرن الثاني للهجرة- بنيته وأساليبه**، سامية الدريدي، عالم الكتب الحديث، أربد عمان الأردن، د١- ١٤٢٨ه-٢٠٠٨م.

٢٥. **الحرب**، بوب وودورد: دار النشر، سايمون وشوستر، ١٥-١٠-٢٠٢٤م

٢٦. حاضر العالم الإسلامي وقضاياه المعاصرة، د: جميل عبد الله محمد المصري، مكتبة العبيكان – الرياض-ط٦ ١٤٢٨ه-٢٠٠٧م

٢٧. **الحيوان**، الجاحظ، ت: عبد السلام هارون، المجمع العلمي العربي الإسلامي –بيروت ٢٩٩٦م

٢٨. **الخطابة**، أرسطو، ت: عبد الرحمن بدوي، وكالة المطبوعات الكويت، دار القلم بيروت ١٩٧٩م

٢٩. **دلائل الإعجاز**، ت: محمود شاكر، مكتبة وهبة.

٣٠. **ديوان سقط الزند**: أبو العلاء المعري، المجموعة الكاملة، مكتبة دار الحياة – بيروت- ١٩٦٥م

٣١. **ديوان لغات الترك**، محمد الكاشغري، دار الخلافة العلية- مطبعة عامرة

٣٢. **رواية جميلة**، جنكيز ايتماتوف، ترجمة هاف اليوسف، دار الساقي، بيروت

٣٣. **رواية جميلة أجمل قصة حب في العالم**، ممدوح فراج النابي، صحيفة العرب، العدد ١٠٠٦٩ لندن، ٢٠١٥م

٣٤. **رواية زينب**، محمد حسين هيكل، دار النفيس، القبة الجزائر ٢٠٠٢م

٣٥. **رواية زينب لمحمد حسين هيكل بين التأسيس والتسييس**، د: مفقوده صالح، ع العاشر، مجلة العلوم الإنسانية ، جامعة محمد خيضر بسكرة

٣٦. **استخراج الجدال من القرآن الكريم**، الإمام ناصح الدين عبد الرحمن بن نجم المعروف (بابن الحنبلي) ت: د: زاهر عواض الألمعي، مؤسسة الرسالة- بيروت، ط١-١٩٨٠م.

٣٧. **الاستعارة في محطات يونانية وعربية وغربية**، محمد الولي، درا الأمان- الرباط-المغرب ط١-٢٠٠٥م

٣٨. **سقوط البلاغة**، منذر عياش، عدد٦٧، مجلة البخرين الثقافية – يناير ٢٠١٢م

٣٩. **الشوقيات**، أحمد شوقي، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، بحث منشور في مجلة كلية اللغة العربية بالمنصور، جامعة الأزهر، ع ٣٠، ج٦، ١٤٣٢-٢٠١١م

٤٠. **صانعو جمهورية قرغيزستان**، ا: آماتوف، ديمي٨ ط ط م

٤١. **علوم القرآن عند الشاطبي من خلال كتابه الموافقات**، محمد سالم أبو عاصي، دار البصائر – القاهرة، ط١- ١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٥ م

٤٢. **العمدة في محاسن الشعر وآدابه**، ابن رشيق القيرواني، ت: محمد عبد القادر أحمد عطا، دار الكتب العلمية، ط٢، ١٤٢٢ه-٢٠٠١م.

٤٣. **الغزو الفكري**، د: محمد عمارة، دار الشروق، ط٢، ١٤١٨ه-١٩٩٧م

٤٤. **الغزو الفكري والتيارات المعادية للإسلام**، د: علي عبد الحليم محمود، نشر إدارة الثقافة والنشر بجامعة الإمام محمد بن سعود-١٤٠١ه-١٩٨١م

٤٥. **فجر القصة المصرية**، يحيىٰ حقي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٨٧م

٤٦. **قراءة جديدة للبلاغة القديمة**، رولان بارث، ترجمة عمر أوكان، دار إفريقيا الشرق. المغرب.

٤٧. **القيم التربوية والجمالية في مفهوم التمثيل عند عبد القاهر الجرجاني**، د: محمد عبد الله أبو الرب، د: عبد العزيز موسىٰ درويش، مجلة بحوث التربية النوعية- جامعة المنصورة - عدد خاص ٢٠- فبراير ٢٠١١م.

٤٨. **كتاب الصناعتين الكتابة والشعر**، أبو هلال العسكري، ت: علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، مطبعة، عيسىٰ البابي الحلبي.

٤٩. **كلا ومواضعها ودلالتها في الذكر الحكيم**، د: إبراهيم داوود، مكتبة كلية اللغة العربية بالمنوفية

٥٠. **كيف نكتب تاريخنا الإسلامي**، دار الشروف، ط١-١٤١٢ه- ١٩٩٢م مستقبل الثقافة في مصر، دار المعارف ١٩٤٤م

٥١. **لسان العرب**، دار صادر – بيروت ط٣- ١٤١٤ هـ

٥٢. **اللغة العربية معناها ومبناها**، تمام حسان، عالم الكتب-القاهرة ط٤ ٢٠٠٤م

٥٣. **المتلاعبون بالعقول**، هربرت أ. شيلر، ترجمة: عبد السلام رضوان، عالم المعرفة ١٩٧٨م.

٥٤. **مجامع البيان عن تأويل آي القرآن**، ابن جرير الطبري، ت: محمود شاكر، دار التربية والتراث، مكة المكرمة.

٥٥. **محتوى الشكل في الرواية العربية**، سيد البحراوي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٩٦م

٥٦. **محمود الكاشغري وجهوده العلمية في ديوان لغات الترك**، أساتذة قسم اللغة العربية، الجامعة الكويتية الدولية ٢٠١٦م

٥٧. **مذكرات نوبار باشا**، دار الشروق-ط١-٢٠٠٩م القاهرة-مصر.

٥٨. **معجم الفروق اللغوية**، الحاوي لكتاب أبي هلال، وجزءًا من كتاب «فروق اللغات» لنور الدين بن نعمة الله الجزائري، مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بـ (قُمّ)

٥٩. **المفردات في غريب القرآن**، الراغب الأصفهاني، ت: صفوان عدنان الداودي، دار القلم، الدار الشامية – دمشق بيروت، ط١ ١٤١٢ه

٦٠. **مفهوم الحجاج عند بيرلمان**، محمد سالم ولد الأمين، دار الروافد

٦١. **مفهوم الحجاج في القرآن الكريم**، د: لمهابة محفوظ ميارة، مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق، مجلد ٨١، جزء، ٣.

٦٢. **مقاربة بين نظرية النظم والنظرية التوليدية التحويلية (قواعد البنية والتركيب**، د: جهان بلمولود، مجلة الخليل في علوم اللسان، ع ٢-٢٠٢٣م

٦٣. **مقاييس اللغة**، ابن فارس، عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م

٦٤. **منهاج البلغاء وسراج الأدباء**، حازم القرطاجني، ت: محمد الحبيب بن الخوجة، دار الغرب الإسلامي بيروت لبنان، ط٣، ١٩٨٦م.

٦٥. **مناهج تجديد في النحو والبلاغة والتفسير والأدب**، دار المعرفة، ط١، ١٩٦١م

٦٦. **من سلطة النص إلى سلطة القارئ**، فضل ثامر، ع ٤٩، مجلة الفكر العربي.

٦٧. **نصوص مختارة من قصاص العرب المعاصرين**، فريد غازي، منشورات الديوان التربوي ١٩٦٠م

٦٨. **نظرية الأدب في القرن العشرين**، محمد العمري، أفريقيا الشرق- المغرب، ط٢، ٢٠١٤م.

٦٩. **نظم الدرر في تناسب الآيات والسور**، البقاعي، دار الكتاب الإسلامي – القاهرة.

٧٠. **الوجيز في تفسير الكتاب العزيز**، ابن عطية، ت: عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية-بيروت لبنان، ط١ ١٤٢٢هـ